

أواه يا حبيبتي ! إنك لتأتين إليّ في
وِكاب كلِّ شيء جميل . في السنى ، في
الشدى ، في النغم الحنون أحسن ديبك .

اللبك

شبه قصة في مقطعات

تأليف

حسين عفيف المحامى

الطبعة الأولى

3

4

5

6

7

8

البلبل

شبه قصة ، في مقطوعات

ما هو منها غرامى ،

من نسج الخيال .

أنت يا قلبي يا بليلى الغرّيد ، أنت سواءٌ أفي
 ظلال الأيك حلقت أم على طائرٍ حطّطت ،
 أنت سواءٌ أعلّى شفاه الورد غنيت أم نحت
 وحدك — شهيد الله ما ترسل الأنعام إلا
 شجيرة .

حرامٌ وربّي إذن أن أُخمد أنفاسك ، وإن
 نكُن ودّعنا الرياض معاً ونزحنا للقفار
 الموحشة ، وكمثل رهبان الدير خلّينا الحياة وأقمنا
 عند محرابنا نتعبد ، رغم أننا لم نزل في شرخ
 الصبا ، ومن الأمانيّ فينا براعمٌ لم تنض عنها
 أكامها ولم تتأرجح .

إي يا قلبُ إي والله ! حاشاي أن أُسكِت

مَنْ إِنْ خَلَا لَشَدْوٍ أَبَدَعَ . إِنْكَ لَغَرِيدٌ .
أَبْدَا غَرِيدُهُ ، عَطَفَ الدَّهْرُ أُمَ اللَّيَالِي قَسَتِ .

نُحْ يَا فُؤَادِي إِذَنْ إِذَا عَزَّ الْغَنَاءُ ، وَأُسِرَ
فُؤَادُ الزَّمَانِ بِوَلُولَةِ نَايِكَ الْمَبْجُوحِ ، وَقَدْ انْبَثَقَتْ
فِي الْفَجْرِ الْوَرْدِيُّ أَنْفَاسُهُ ، تَرْسُلُ الشُّكْوَى فَتَدْمِي
أَفْتَدَةَ السُّحُوبِ ، وَتُسِيلُ بِالْدمْعِ أَجْفَانِ الْغُصُونِ .

وَلَسِنَّ عَاوِدَكَ الْحَنِينُ إِلَى أَيَّامِ الطَّرِبِ ،
فَتَمَلَّ مَا ضِيكَ مِنْ تَلَافِيْفِ ذِكْرِيَا تَكَ ، وَمِنْ ظَلَالِهَا
الْحَزِينَةِ انْفَذَ لِلْقَبَسِ .

وَعِنْدَمَا تَسْتَشْرِفُ لِأَلَاءِهِ الْقَدِيمِ ، كَالْحُلُمِ لَاحِ
وَسَطِ غُضْمَضِ الْكَرَى نَوْرُهُ ، أَوْ كَالصَّبْحِ نَهْمٌ
عِنْدَهُ فِي ضَمِيرِ اللَّيْلِ نَجْمٌ ثَوَى ، فَعَشَّ لَحْظَةً فِي
هَوَاكَ ، وَأَحْيَى وَلِيَاهِ عَهْدِ اللَّيَالِي الْمَقْمَرَةِ .

وَعَنَّ وَاطْرَبَ مَا شَتَّتَ ، وَعَلَى أَجْنَحَةِ النِّسِيمِ
أَرْسَلَ أُسْجَاعَكَ . وَأَرَوِ ظَمَأً طَالَ عَلَيْهِ الْعَهْدُ ،

واشْفِ الفؤاد من حرمان الليالى .

حتى إذا ما صحوّت ورَدَّت اليقظةُ بصرك ،
فانْشَلَّ في قنوطٍ من بهجة حلمك ، وعُدَّ
فاسكنُ إلى دياجيرك الموحشة ، بعد أن تسدِّل
الستار على ماضيك الحبيب .

وهناك وأنت حبيس كهفك ، عُدَّ للنواح
أسىً على محنتك ، وابكِ الليالى بالقليل الذى
تركته لك من نور عيونك ، واذرفِ الدمع
على خدى المضميم ، حباتٍ من ذوب الشجن ،
يتألق الوجد فيها كتألق الندى ذوب الفجر فيه
حشاشته .

وافتحْ عينيك المخضلتين ما بين حين وحين ،
وسرِّح الطرف حسيراً في ظلمات غارك ، وارمقه
شزراً من وراء دموعك الرقراقة ، كزهرة المرج
من شبت بالضياء كليفة ، حين ترمق الغيم

من خلال قطارة الطلّ وتتوجس .

وحاول وأنت تُسارق دجالك النظر وتنفطر ،
أن تقع عبثاً في دياجيرها على أنيس أو تسمع
في صمتها المخيم نبرة .

حتى إذا ما يثت وأفزعتك هواجسك ،
فهبّ مذعوراً كالجمامة رُوعت ، وانتفضر الماء
كالطير الذبيح .

ولكن تعبت وسوف تتعب ، ونشدت البكاء
فاستعصمت دموعك ، فاهمد عندك من بعد ضجّة ،
وبالوقار لُدّ من بعد جزع .

وكن ومضنة برق لمعت واختفت . أو شمعة
خفت وانتهدت . وكمثل دمعته وهي تهوى تلاللات ،
أو زهرة عند القيطاف تألفت ، كن من
تألفت ليتخبو .

الماشقون على ضفاف الغدران وفي خمائل الربى
ينتظرونك — أيها الشاعر فهلاًّ لاعتنايك ،
وأترعتهم بأغانيك المشجية ؟

أفما تنهض ؟ حتى إذا ما التقت المغرمين شفاه ،
حيث بالشدو الخنون قبلاتها المشبوبة ، مغرقاً
رئيسها السكران في نعاس غنائك ؟

أفما تنهض ؟ حتى إذا ما موجع جافاه الزقادر
فهجر فراشه ، ضارباً في الدجى بلب شريد ، راغباً
في البكاء ليفرج كربه ، هيّجت بالنغم الحزين
مكامن أشجانه ، وذلكات منه دموعاً كانت عاصية ؟

قم إذن صفق بجناحيك ، ووكرك زایل .
وطر وحلق فوق مغانيك القديمة ، وغنّ واطرب ،
واخلب الأسماع كما كنت تلبت .

قُمْ تَذَكَّرْهُ لِيَالِي حَبَابَاتِكَ الْأُولَى ، حِينَ رَاحَ
الْغَرَامُ يَلِيهِمْ قَالِيكَ ، وَفِي الشَّوْقِ غَنٍّ كَمَا يَا طَالِمَا
غَنَيْتَ .

قُمْ . قُمْ أَيُّهَا الشَّاعِرُ بِاللَّهِ وَغَنٍّ . هِيََا وَتَنَاوُلْ
نَايِكَ . وَاسْمَحْهُ بِأَصَابِعِكَ ثَقُوبَهُ .

قُمْ ، وَلَكِنَّ زَهْدَتَ فِي الشَّدْوِ بَرًّا بِحَزْنِكَ ،
فَغَنٍّ لِلْأَلْسَى لَمْ تَزَلْ بِضِيَاءِ الْأَمَلِ قُلُوبُهُمْ مَشْرِقَةً .

مَنْ لِمَنْ بَوْجِيبِ الْحُبِّ نَظَرَاتُهُمْ تَتَأَلَّقُ ؟
أَوْ لِمَنْ بَضَائِهِ قَدْ غَاضَتْ فِي الْمُقَلِّ ؟ مَنْ
لِمَنْ فِي الْبَعْدِ بِالْدمْعِ تَشَاكُوهَا ؟ أَوْ لِمَنْ فِي
الْقَرَبِ تَهَادُوهَا بِالْقُبُلِ ؟ — سَوَاكَ أَنْتَ مَنْ
بِجِرَاحِ الْجَمِيعِ يَنْبِضُ قَلْبُكَ ؟

تَفَزَّهَ مِنْ قَلْبٍ مِنْ بَيْنِ الْقُلُوبِ فَوَادُّكَ ،
عَنْ أَنْ تَخْرُسَهُ وَإِنْ طَغَتْ أَحْزَانُهُ ، وَهُوَ الَّذِي
لِسَوَى التَّرْنِيمِ مَا خَلَصَ . أَوْ لَمْ تَلَسْ أَوْ تَارَهُ

مَدَّ خُلِقَ أَيْدَى الْآلِهَةِ ، وَتَفَعَّمُ مَجَامِرَهَا بِاللَّهَبِ
 السَّرْمَدِ ، أَشْمُ أَمْرَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَائِبَ الشَّدْوِ ؟
 قُمْ إِذَنْ أَيُّهَا الشَّاعِرُ . قُمْ سَائِلُ جِرَاحِكَ ،
 وَتَعَقَّبْ بِأَعْزَبِ الْأَلْحَانِ مَا تَجِييكُ بِهِ . وَلَيْكُنْ
 مِنْ حَزْنِكَ مَا يَرْقِي سَجْعَكَ ، وَيَحْلِيهِ بِأَسَى مُخَامِرِ
 دُفِينِ ، يَأْسِرُ الْأَسْمَاعَ جَرِيحُ شَجَاهِ ، وَتُلَيْنُ بِحَنَّتِهِ
 الْأَقْدَةَ الْحَجَرَ .

٣

حَانَ وَقْتُ الْغَنَاءِ فَيَّيَّا ، أَيُّهَا الشَّاعِرُ وَانْقَضِ
 وَسَنَكَ . هِيَ وَيَمُّمُ مَعَ الصَّبَاحِ صَوْبَ الْمَرْجِ ،
 وَعَصَا سِيحْرِكَ فِي يَسْرَاكَ ، وَفِي يَمِينِكَ نَائِكَ .
 وَاتْرِكِ الْحُضَرَ لِلْغَافِلِينَ ، وَفِي صَحْبَةِ الرِّعَاةِ
 هُمْ فِي الْبِرَارِ . وَاهْبِطْ حَيْثُ هَبَطُوا الْمِرَاعَى شَادِيًا ،
 وَطَأْ كَلِمًا وَطَئُوا الْعَشْبَ النَّدَى .

وبالنسيم البليل اغسل كدر النفس ، وبنفح
الزهور ضمخ فؤادك . واقتضب حيث سرت
نية مخضلة ، أو اقتطف وردة إن حلا لك .
وتناولها من يد الزهر كئوساً ملأى بالندى
قد عطرت بها أنفاسه الفواحة . وتعاطها في محبة
الطير خيراً حلالاً من مقلة الفجر ما سكبت
لا من زجاجة .

حتى إذا ما انتشيت وهفوا للشدو قلبك ، فكن
كطير الغاب صداحاً ، وابعث الأسجاع تطوي
الوهاد وتقفز فوق أعالي القمم . وتعانق الأغصان
أنسى تسير ، وتلثم الأزهار أنسى يمت .

وأطلقها مشبوبة كغناء البلابل في الأيك ،
تحمّر خجلاً منه خدود الورود ، وعلى وقعه
تميس غصونها الميأة .

نعاسية كهديل الحمام في القيظ ، تغفى على

مناغاته البنفسجاتُ التعبية ، وتحلم في نومها الزنايق
الوسنانة .

مكتئبةٌ كنواح القمرى ، يعقد الغمام في
الآفاق شجاءً ، ويهزُّ منه الدموعَ على الجداول
برقاقة .

مبحوحةٌ ككتاف الكروان ، يبحرح الشفق
ملهوفه في الغروب ، ويُسيل منه الدماء على الربى
وردية .

ربّانيةٌ كتسبيح اليمام في الفجر ، يُنزل الحشية
على قلوب الطغاة ، ويوقظ العابد كي يذكّر ربه .

٤

كأنى حين أُمسك ناي ، والأغاني من ثقوبه
تترنح ، قد حَمَلْتُ فؤادى قُبَّرة ، وعلى مكانٍ
في رياض الخلد حطَّت .

وإذا بي وعلى ففى المزمارُ شادٍ ، قائمٌ أنشد
وسط حلبة رقص ، قد أديرت فى قريةٍ سحرية .
الغوانى فيها حُورٌ حسانٌ ، مِلأوهنَّ السحرُ ،
وعلى الأجساد منهن نور .

وكأنى وهنَّ يدُرْنَ حولي ، وعلى ضروب
العزف ينقلنَ القدم ، مقبلاتٍ مدبراتٍ ، مائساتٍ
بالقدود السمهرية ، ما أرى غير أغصانٍ تميدُ ،
أو ظباءٍ غريرةٍ تتلفت .

وكأنى ورحسى الألحان تدور ، بندامى تطوف
فى حُللٍ ذهب ، رحن يسقين الجمع وقد طرَحوا
الكدر ، من مُدامٍ تسكر الروحَ عسليّة .

وإذا بي حين أشرب كأسى ، قد مَسَّ منى
إصبعى شيطانٌ ، فترانى يخلب الألبابَ عزفى ،
وأجىء القوم بالنغم العجب .

حتى إذا أتممتُ شدوى ، ورأيتنى للأرض

أرجع ، فكأننى فى الكون سابع ، وعلى جناح
النور هابط .

وعندما أفتح عيني ، وبعد أن يذهب حلمي ، إذا
بى فى شرقى جالس ، وعلى زهر بستانى أطل .
وحين يحمىنى أشملى وزهرى ، ويرانى إذا
خوطبت أدرك ، تحدثنى من الأزهار زهرة ، وكأنها
راحت تقول :

أيها الشاعر حين كنت تخلق ، حين غنيت
والحُور حولك ترقص ، نحن أيضاً رقصنا على
نغمات نايك السحرى .

٥

لقد أقبل الربيعُ وانبتت القلوبُ مع انبثاق
البراعم ، عذريةً بعد انقطاع العناق فى قحط
الخريف ، تنزى قلقاً إلى الوصل ، وعليها من
جِدَّة الأشواق نضارة .

فترنَّح العصفور على غصنه المياد وقد خفَّ إلى
مواطن السكرم ، يحتسى الأقداح من خمر العناقيد
وينعتها مغازلاً بالنجف .

وغرَّد البلبيل في قلب الفجر فأفاق على سجيته
الجدول الغافي ، وصحا الزهر وقد تخرَّج لونه .

وتبخترت فوق دوحها الأغصان وقد لبست
حُلَّ النضار وطرزتها بجُمانٍ من قطر الندى ،
كمثل غانيةٍ برَّحها اللبث في انتظار عشيق ،
فازَّيَّنت وخرجت عند بابها تتسكع .

وبينا اتخذت النحل من شقائق الورد مخايباً
تمتصُّ فيها رحيقها المعسول ، ترى الجراد وقد أخذ
يباغت الزنبق بقفزاته الماجنة ، والفرّاش وقد
يمَّ شطر مساقط الضوء يحاول أن يغري الأفاقي
برفيف أجنحته الذهبي .

وكأى من نسمةٍ تهت على صدر الرياح

حين غشي في روحاته الكروان المشوق .
أو دمع حذرتها عين الغصن على هديل القمرية
الشاكى .

كأن السكل بالجمال واستراح إلى جنوى
يكابد لوعته ويتحرق فوق جهره أشراقه . وانقياداً
للورى خاتم العذار ، فأفشى نظرت ألبيت طائراً
عشباً أو زهرةً ولحانة .

وأما شباب القوم من فتيمة وعذارى ، فتبعثوا
زهوراً على طول المروج وكأنهم الضياء العريضة
تشرى ، ثم تفتقروا يبحثون بالتبيل تنواح الخدر .
ويتحصرون بالشتم رمان النهود .

وهذا انتظم الحفل حنظل الربيع . وأقبل
المشاق من رائديه يتصفنون جذلين . ويتابعون
الرقص على نغمات ما تفتأ الطبيعة ترقعها على
أوتار قلبها الفيشارى ، بين رقص من حفيف

الغصون تَدْفُءُ ، وقيانٍ من بلاياها تغرد .

ولقد اطمأن العشاقُ كلٌّ إلى جنوار حميمه أو
شمعته الموقدة ، وأنشأ يحترق على لهبها في شغفٍ
ولذة ، فما عتَم أن انبعث في الأفق دخانٌ من
أنفاس معطّرة ، بخوره من قلوب تشبه المنديل
نكهتها ، وعليه من الجوى أصباغٌ ، تراهى في
الفجر في لون الزعفران ، وحين الغروب في خضاب
العقيق ، دمويةً كلما تَطَلَّعَ الشجيُّون إليها
آذنتهم من جراحها لوعاتُ الوداع بوشك الرحيل ،
فتراهم وقد أذف وقت الفراق سُكَّارى عن كرم
أفاقوا ، وإذا هم يتفرقون وكلٌّ في جرائحه شفقٌ
جريح ، حتى إذا ما أَوَّوا إلى مخادعهم جافاهم
النومُ فيهرعون إلى شُرُفاتهم من البرحاء ، حيث
دَرَجوا على تمضية الليالى يراعون في النجم
ذكريات النهار ، ويطالعون في البدر قَسِماتٍ
من عَشَقوا .

وأما من حاله منهم الحظُّ وأرخى ذروه له
الحنان ، فيواصلون العزل تحت ستر من ظلمة الليل ،
وربين بمسكات القمر الذي يبدو وكأنه يفهم .

٦

انتابت فؤادي رعدةً مقدسة ، حين حمل إلى
الفجر باكورةً مقدسة ، ورأيتك تخرجين من
عربتك الفاخرة ، في زمرة العذارى اللاتي زفن
إلى الوجود هذا الصباح .

ولقد راعني منك أنك زهرة موفورة
الحسن . عذراء قد نصت أكامها للتو ،
فبدت مأخوذةً بسحر الضياء ، وأقبلت تنهل
منه وهي مبهورة .

فهيبتُ إليك من غصني واجفأ ، وبعد أن
انحنيت حتى لثمتُ التراب ، حيثُك بأشودةٍ عذبةٍ
من نغمة المبحوح ، فتنبأَتْها في خَفَرٍ وأوماتٍ

إلىَّ باسمه ، ثم رددتِ لي التحية بكأس من
نَدَاكِ شربتها راشفاً ما كُنتَ فيها من أنفاسك
المعطّرة ، ثم طرت أنا البابل إلى غصني المياد ،
أحمل بقلبي عير الحب ، وأضوّعه في الأسحار
أنغاماً مشبوبة .

٧

إذا ما انبثق الفجر ونفّضنا عن أعيننا
السكرى ، فمشوّعي لي يا زهرتي عطرك .

واذكرى إذا ما بهشتُ بدووري بالشدو الخنون ،
أنى بليلك . وأن وادينا هذى الرياض ، وملتقانا
الميادُ غصنك .

وخذيها إذا ما قدِمتُ من فم الصبّ أغاني
تُسكّر كالقبل . وهاتيها من مَراشفك العطّرة
كاساتِ ندّى كالرحيق .

أثرانا نحن البلابل والزهر ما لغير الغرام

خَلَقْنَا ، أَمْ تَرَى الرُّوحَ وَقَدْ رَاحَ يَجْمَعُنَا
أَغْرَانَا بِالْهَوَى ؟

أَمْ أَنَا نَحْنُ السَّاكِنِيهِ مَا نَرَى مِنْ حَوْلِنَا غَيْرَ
الْجَمَالِ ، فَشَبَبُنَا وَمَا نَحْنُ لِسِوَاهُ نَهْبُو ، وَلَا بَغِيرَ
الْهِيَامِ فِيهِ نَدِينُ ؟

يَا بُورِكَ فِينَا بِلَابِلَ عَلَى تَنْفَاسِ الْفَجْرِ
نَصْحَوِ ، وَعَلَى رَذِيذِ نَدَاهُ نَفِيقِ . فَتَعَلِمْتُ قُلُوبُنَا
مَنْ يَوْمَهَا الْخَفَقَ ، وَعَرَفْتُ أَعْيُنُنَا مَنْ سَاعَتَهَا
الْدموع .

وإِنَّا لَتَتَضَمَّنَا الْوَكْنَةُ إِنْ نَمْنَا ، وَالْأَيْكَةُ الْمِيَادَةَ
إِنْ خَفَفْنَا لِلْعَب . وَنَأْكُلُ إِنْ جَعَلْنَا مِنْ عَنَبِ
الْكُرُومِ ، وَنَشْرَبُ إِنْ ظَمَمْنَا مِنْ صَفْوِ الْغَدِيرِ .
وَيُسْكِرُ الطَّائِرَ مَنَا نَفْعُ الزُّهْرِ ، وَيُطْرِبُ
الزُّهْرَةَ مِنْهَا شِدْوُنَا . وَفِي كُلِّ غَصَنِ نَغْمٍ
يُرْجَعُ ، وَفِي كُلِّ مَغْنَى قَبْلُ تَخْتَلِفُ .

وَكأَيَّ مَنْ وَرَقَةٍ تَرْتَعِشُ كُلُّهَا غَرْدَ صَدَّاحٍ ،
أَوْ صَادِحٍ يَتَأَوَّهَ كُلُّهَا رَفَّتْ وَرَقَةٌ !
وَقَدِيمًا مَسَّنَا الَّذِي مَسَّ قَيْسًا وَابِلَى ، فَمَا
نَحْنُ مِمَّنْ عَنِ الْحَسَنِ يُغْضِي ، وَلَا نَحْنُ مِنْ
صَبُوتِنَا نَفِيقُ .

٨

أَنَا مَنْ سَقَيْتُ عَيْنِيكَ أَكْوَابَ نَمَاسِي
وَسَهَرْتُ . وَزَرَعْتُ بِمَخْدِيكَ الْوَرْدَ ، وَرَدَّ أَشْوَاقِي
وَرَجَعْتُ بِشَوْكِهِ .

وَإِنَّ مِنْ خَمْرَةٍ حَبِي ، مَا أَرِيقُ الْمَدَامَ تُسَكَّرُ
لِحُظُّكَ . وَإِنَّ مِنْ أَسْوَدٍ حَزَنِي ، مَا أَخْطُ
الظَّلَالَ تَكْحُلُ جَفْنِكَ .

كُلُّ مَا يُذِيلُ غَضَبِي ، يَزِيدُ نَضْرَةَ عُنُودِكَ .
كُلُّ مَا يَطْفِئُ ضَوْئِي ، يَزِيدُ نَوْرَ شَمْعِكَ .
يَا مَنْ بِالْأَنْفُسِ جَدْتُ وَتَبَخَّلِينَ ! لَوْ كَانَتْ

دموعى حباتِ أولو ، نظمتُ منها الأقراط
لأذنك درية . أو بسماوى اللجين أذيب ،
لسبكتُ منه خلاخيلَ لقدميك فضية . ولما
إلا رصعتها ، من رنين ضحكاتي بجلاجل من
ذهب .

ولكن دموعى شجن مذاب . وبسماوى بوارق
شوق . لها لا تصلح حلياً أخلاعه عليك .

إنها بعض ذلك القربان الغير منظور ، الذى
ما أفتأ أضهجتى به على مذبح حبك ، أيها الإله
الناكر للجميل .

إنها بعض تلك الأنفاس التى أصبها فى هيكلك ،
فتأرج فى دمائك ، وتهز على جسدك البديع زهر
جماله .

عندما انحسر قناع الليل عن جبين الصباح ،
 هبطتُ درجَ حديقتي المرمرى ، وبيدي أرغفٌ
 وعلى مفترقي إكليل زهر .

وحين حسيّتي منه طلائعُ العطور ، عامدتني
 خفّةٌ في القياد فسبّحتُ بجناحيّ كفراشة ،
 وغصبتُ بين أحواض الورد .

ولقد انجابت عني الأشجارُ وأنا أعبر قنطرةً
 تشابكتُ فوقها الأفنانُ ، وتدلّكتُ منها زهورُ
 كالعناقيد هي بالشرّيات أشبهه .

ومن تحتها يجري جدولٌ رقيقٌ يسير الهوينى ،
 ثم ما يلبث أن ينعطف ويغيب وراء غابة .

وبعد أن جزتُ طريقاً منعرجاً يفرشه نِشَارُ
 من زهر الليمون ، لاحت لي بحيرتي كمرآةٍ لامعة .
 وطالعتني منها أشجارُ الصفصاف وهي تدور

مع شطآنها المَشْشَوْشِبَة ، مدليةً بفروعها
البيطة في الماء كأنها غوانٍ تشرن غداثرهن ،
وفي وسطها لمحتُ العيون وقد تفجرت من
صفاة ، ثم أخذتُ تسيل من مساقطها نحيوطاً في
خريفٍ ذي نغم .

ورأيتُ النافورة وهي تقذف بالماء يتوهج في
أشعة الشمس ، ثم تتركه يرذُّ على الموج ،
وإذ يهوي تسمع نقراته .

وإذ دنوتُ شاهدتُ أسرابَ الأوز وهو
يجوب مسالكها بأعناقها الطويلة البيضاء ، فيبدو
كقاربٍ ذي شراع .

وشاهدتُ العصافير وقد ازدحمتُ فوقها ناشرةً
أجنحتها ، وما تنسى تغمسُ صدورها في الماء
وتلتفّض .

على حين سبّحتُ أزهارُ اللوتس غافيةً

مع اتجاهات الرياح ، وهي ما تنفك تلقى في
تجوالها بالزنايق العائمة .

واقدا اتخذت مكانى عند خليج اندلس منها في
العشب ، تظللنى أشجاره من الحناء يذكر فسو حشاها
الأرواح بعبق الجنة .

وهناك وفي تلك البقعة التى تحمل طابع نديك
وذكرى قوامك اللدن ، رحت أبعث إليك
بنجواى على أنفاس أرغى المقتب .

١٠

إذا ما الليل جنَّ وأُطفِئَت الأنوارُ بقصرك ،
فتلاشى الضياءُ إلا من بصيصٍ من نور النجوم
ضئيلٍ على شعاعٍ من مصابيح الشوارع خابٍ ،
وأوى القومُ إلى مضاجعهم فلم يبقَ ثمة من
رقيبٍ ترمقنا عيونهُ ، فلسوف الملح من ركنٍ

نافذتى المقابلة لشرفتك ، ظلالك فى ظلامها تنقل ،
فأعلم أنك ما زلت ساهرة .

يا ما أحلاها عندئذ للمناجاة ساعة ! إن كل
ما كان بين نجوانا يحول ، لسوف يطويه الظلام
وقد دَجَا ، ويتلعه السكون فيما يتلعه . وكأن
الليل قد صار لنا ، ولحبنا وحدنا قد خلَّص .

حتى جسدانا الناحلات من البرحاء ،
سيختفيان فيما يختفى ، ونصبح محض روحين تَجَرَّدتا
للهى .

اسمعيها إذن همساتٍ من فؤادى المشتاق ،
يُسِرُّها النسيمُ إليك وقد خطر ، مثلها يُسِرُّ
تحية الزهرة للزهرة ، أو قبلة الغصن للغصن .

وتلقَّفها قُبَلًا من نار ونور ، أبعث إليك
بها من مكمنى ، تضىء فى كبد الليل وتستقرُّ على
فمك .

وارقيها وهي تمرق ملتمة في الظلام ، وكأنها
الشهب من أفدة النجوم تهاوت ، أو الشرر من
حشاشة النار تطاير .

ولنايت هكنا في الظلام الرقيق ساعة أو
بعض ساعة . رسولنا النسيم نحمّله الأشواق ،
ومصباحنا القبل تضيء علينا من نور لا يرى .

حتى إذا ما أمسى بك الوقت وتبينت ظلاماً
على الشرفة يتحرك وفي قلب الظلام يغيب ،
أدركت أنك قد داعب عينيك الكرى ، فتسللت
متعبة إلى مخدعك .

ول إذ أستمسك للنوم بدوري ، لم يضرنا أن
قد فرق بيننا الوسن ليجمعنا في الروى .

نحن مثل طير الروض ، إذا ما افترق ، فإسكى
يلتقى على غصن جديد .

ولقد ربطنا بأواصر الحب قلبينا ، فترانا أبداً
معاً وإن خالنا العذول شقيتين .

١١

تعالى حبيبتي تجلس في هذه الخيمة ، يتنقل
إلينا من بين الغصون شعاع من نور القمر ،
رقيقاً شاحباً كوجهينا الحسنين .

هذا مصمى التواق ، يقطف رأسك على
صدرى . فيقفز القلب الحفّاق ، ليثم أطراف
غداثك .

قرّنى من شغرى فمك . ودعى الحب المشتاق ،
يقطف القبل التى يتمنى . إنما اللذة للعشاق ،
فاندقها قبلما تذلت منا .

نحن فى الغد والاشواق ، أحاديث تُخبر
عنا .

هَجَّعَ الْقَوْمُ وَسَعِدُوا بِالْكَرَى ، وَلَمْ تَزَلْ
 أَيْمًا الْعَاشِقُ سَاهِرًا فِي شَرَفَتِكَ ، أَتُرَى تُنْصِتُ
 فِي تَأَمُّلِكَ وَأَنْتَ وَحِيدٌ ، لِنِدَائِهِ مِنَ الْمَحْبُوبِ آتٍ ؟
 وَتُرَى مِثْلَكَ هُوَ سَاهِرٌ ، وَكَمَا تَنْصِتُ
 يَنْصِتُ ؟ أَمْ نَائِمٌ حَالِمٌ ، وَعَلَى جَفَنِهِ طَيْفُكَ
 الْحَبِيبُ يَدَاعِيهِ ؟

عَجَبِي لِلْعَاشِقِينَ مَا تَعْرِفُ الْقَنَاعَةَ أَشْوَاقُهُمْ !
 مَا كَفَاهُمْ أَنْهُمْ نَهَارًا عَلَى الرِّيَاضِ وَالرَّبِيِّ مُنْتَشِرُونَ ،
 حَتَّى مَضَوْا وَقَدْ سِخَّرُوا الْكَرَى لَيْلًا لِلْقَائِمِ .

لَيْتَ أَنْ الْعَدُولَ يَفْهَمُ ذَلِكَ ، فَمَا يَعُودُ يُتَعَبُ
 بِالْتَرَصُّدِ نَفْسَهُ ! أَمْ تُرَى ظَنُّ الْغَيِّ أُنْمَا فِي
 وَسْعِهِ أَنْ يَر_اقِبَ الْجَفُونَ ، وَيُوقِعَ الْأَطْيَافَ
 أَطْيَافَ الْكَرَى فِي حَبَائِلِهِ ؟

لَيْتَهُ يَوْفِرُ عَلَيْهِ الضَّائِعَ مِنْ جَمْدِهِ ، وَيَتَلَهَّى

عن صيدنا بصيد ذبابه ! ليه يبيع في عقر داره ،
قبل أن يفتك التجوال بالبالى حذائه !

ويحكه ، قد كاد أن ينفق لما أن تعمقنا
تعبا . أمس نفق حماره قد كان أجهد في
العدو نفسه . أفمن ذاهب بالنبأ الأليم إليه ،
علاه أن يرعوى وينقذ عمره ؟

ويحكه ويحكه ما أخيب أمله ! ليس في
الخائبين من له خيبته . من لي بلطمة من يد
الحبيب تُصلح غيّه ! أو بزرقه عصفور
تُغرق الكالح وجهه !

لو كان في الروض طماطم ، لَمَا كنتُ إلا
خضبتُ قفاهُ بواحدة . أو كان في جيبِي يَمْضُ ،
لَأَلْبستُ أنفه المعقوف بيضة .

لئن حَلَّ الثَّقیلُ في الروض غدا ،
لَتَكُونَنَّ بَيْنَنَا مَوْقِعَةٌ . وَلَتَكُونَنَّ لِلْكَمَاتِ عَلَى

رأسه قرقرة . وليكونن شاهدي الحبيب ، وشاهد
عضد نقة .

١٣

بالأمس بت ليلى ساهراً أراعي النجوم
وأذ كرك . وكلما هيج البعد تباريح الفؤاد .
بكيت حتى تقرح مدمسى .

وإذ ثاب ثغر الفجر عن حديقتك اليانعة ،
انجبت إليها واهناً أتسقط أنباءك .

فعلبت من فلق الرياح أنك لم تزال غائبة .
وأجابني نوح الحمام مردداً : لما تعد !

ولقد قرأت ضمائر الأزهار في عبراتها
المسكوبة . وعرفت ما قال الغدير من خطواته
المترنحة .

فرجعت أدراجي قانطاً ، بعد أن بعثت إليك
مع عطر الزهور بقبلة ، ومع الجدول الرقراق

بدمعة .

وتنيت لو كانت مهجتي نسمةً فأطلقها في
أثرك . أو فؤادي حمامةً فأرسلها ترفرف فوقك .

آه يا حبيبتي ! متى تعودين من رحلتك الطويلة
هذي ، ونعود نلتقي على ضفاف البحيرة وفي
ظلال الأفنان ؟ تبادل القبل المعسولة بين غمزات
الزنايق ، ورغم بسيمات زهر اللشوتس العائم ؟
ثم نمضي نطعم البط بأيدينا الحب ، ونعدو في
طاب الفراش حفاة ؟

وتبكين كلما نقرت إصبعك لإوزة . أو أدمت
قدمك الجميلة شوكة . فأخفُ إليك واجفأ
أحتضنك ، وأجفف دمعك بأوراق الورد .

أَوَّاهُ يا حبيبتى ! حَتَّامَ بالله تَطُولُ غيبتك ؟
 حَتَّامَ هذا اليتيم والظالم من بَعْدِكَ ؟

متى تعودين ؟ وتردِّين على العين نورها ، وعلى
 القلب المضطجع رفقته ؟

فى الليل يهتف السكروان ، فتنتاب جسدى رعدةٌ
 وأظنه يحْمِل من لَدُنْكَ رسالة .

وفى الفجر تهبُّ النسمة من الروض ، فتشبهق
 روحى ، وإخالكِ سابحةٌ فى عطرها .

وكلما جاء الأصيل بموكبه الذهب ، قفز
 فؤادى وحسبتُكِ قادمةً فى رِكَابِهِ .

أو طالعتُ وجهك فى القمر المنير ، خِائِتُ
 أنى منكِ دَانٍ ، على ما بيننا من بُعْد .

وإنى لأعطف الغصنَ الميَّاد فأحسبُنِي

ضممتك . أو ألتهم الوردة الخجول فأظننى
قبلك .

أواه يا حبيبتي ! إنك لتأتين إلى فى رِكاب
كل شيء جميل . فى السننى ، فى الشذى ، فى
النغم الحنون أحسن دبيبك .

ولأنك لقريبة منى حين فى الرؤى تأتين ،
قرب أجفانى منى . ولكن شيئاً منك يبقى
نائياً ، ويردُّ الفرحة الزور فى قلبى غصة .

أواه من أطراف الرؤى تلك ، وما تموهه
علينا من لبثها ! تسلّم فى الكرى بالجفون
المشوقة ، كما يمرُّ الأملُ الحلو بالخاطر ،
يعيش إذ يستمع فىنا وما هو فىنا . وإنّا لنسلم
ذلك ونحن نستعرض موكبه وقد أخذت تتابع
أمام عيوننا صورته ، فتعجب لذلك السكائن
الجميل الذى يرى كما ترى السكائنات وما له

من وجود ، وما نفتأ نشعر وهذا الزيف يكتنفه ،
كأن نجومه اللامعة تنهاوى على قلوبنا وترسب
فيها حسراتٍ خافية ، ما تُعتسّم أن تخطئ
ظلالها على وجوهنا كآبة .

أواه أيتها الأطياف يا أطياف الكرى ! إن
الفؤاد ليْلهمه خفيته من أي زور تنحدر
رؤاه التي تموّهين عليه . وتالله لتُحزن
وساوسه فرحته الكاذبة .

حبيبتى ! لمَ بربك تأتينى فى الرؤى لَمّا
وخلسة ؟ وكالظلال يُفليتُ الأصابع لمسها ،
وفى مثل لَمّح البرق تنقلص ؟ لمَ تلوّحين لى
منك بالسراب ، يزيد من ظمئى وما ينقع غُلّتى ؟

قَسَمًا بحبك وما أكرمه على ! قَسَمًا
بفؤاد بين الجوانح يتحرق ! لقد ظننتُ حبك
مصباحاً يضىء عليه ، أو عين ماءٍ تُروى المأجّج

ظمائه ، فكان مصباحاً ولسكنه أحرقه ، وكان
عيناً ولكن لا مسح منها دموعي .

آه ، متى ؟ متى يا منى القلب تأتين
وتصدق العين أنها تراك ، متى ؟

متى يحتوى قدك اللدنه ذراعى وتحمس
شفتاى أنفاسك ، متى ؟

متى يلمع الشوق بعينينا ساعة التقيل فيمتك
الظلمات حوالينا ، متى ؟

متى ، ويطفىء التدانى حرقه بالفؤاد ، ويلطّف
اللقاء من حدة لوعتي ؟

وتناديتنى قائلةً : حبيبي ، وأهمسُ في
أذنيك : حبيبتي ؟

تعالى ! تعالى مهجة القلب ! تعالى نعطف
الصدرين اللذين أضناهما البعد ، ونطبق الشغرين

على قَبَلِ دَانِيَةٍ .

تَعَالَى فِي مِهَادِ الزَّهْرِ نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ ، وَنُعِيدُ
الْيَالِي يَا مَهْجَتِي سِيرَتَهَا .

١٥

عِنْدَمَا رَأَيْتُ أَوْرَاقَ الزَّهْوَرِ كَأَجْفَانِي مَبْلَكَةً .
وَلَحْتُ عَلَيْهَا الْقَطْرَ كَالْجَمَانِ يَتَرَجَّرُجُ .
وَيَتَدَلَّى كَلِمَا قَلْبِهِ الْوَجْدُ فَكَأَنَّهُ الْأَقْرَاطُ ،
ثُمَّ يَسْقُطُ عَلَى الْعُشْبِ كَعَقْدٍ مَنفَرُطٍ .
أَدْرَكْتُ أَنَّ نَدَى الْفَجْرِ دَمْعٌ تَسْكِبُهُ الْأَزْهَارُ ،
وَرُثِيْتُ لِكُلِّ نَبْتَةٍ مَخْضَاةٍ .

وَتَمَنَيْتُ لَوْ جَمَعْتُ مِنْ حَبَّاتِهِ كَأْسًا وَمِنْ
دَمْعِي لُجَّةً ، ثُمَّ خَضْتُ إِلَيْكَ مَزِيْجَهُمَا سَابِحًا .
حَتَّى إِذَا مَا وَصَلْتُ وَثِيَابِي مِنْهُ تَنْطُفُفُ ،
مَسَّاتُ أَمَامَكَ بِأَشْوَاقِي مَضْمَنَّةً بِعَطْرِ الْأَزْهَارِ .

بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي الضُّحَىٰ وَبَيْنَ يَدَيَّ طَاقَةٌ
 مِنْ بِنَفْسِجٍ حَزِينٍ ، إِذْ حَمَلَ إِلَى الرَّسُولِ بَشْرَى
 مَقْدُمَكَ ، فِي رَكْبٍ هَذَا الْأَصِيلِ الذَّهَبِيِّ .

فَنَزَلَ عَلَى النَّبَأِ نَزُولَ قَطْرَةِ الْغَيْثِ عَلَى النَّبْتَةِ
 الظَّمَانَةِ ، وَأَحْسَسْتُ بِقَلْبِي يَطِيرُ مَصْفَقاً بَيْنَ جَنَبَيَّ ،
 كَحِمَامَةٍ تَرْفُفُ فَوْقَ عَيْنِ مَاءٍ .

وَضَاقَتْ بِي شَرْقِيٌّ مِنْ فَرَطٍ مَا فَاضَ بِي
 الْفَرَحُ ، فَهَرَوَلْتُ مِنْ فَوْرِي صَوْبَ الْحَدِيقَةِ ،
 وَطَفَقْتُ أَجُوبُ فِي أَرْجَائِهَا ذَاهِلاً عَنْ نَفْسِي ،
 كَفَرَّاشَةٍ غَرَّةٍ بِهَرِّهَا الضِّيَاءِ فَضُضْتُ تَتَمَرَّغُ فِيهِ
 لَا تَلَوِي عَلَى شَيْءٍ .

وَلَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الشَّمْسَ تَتَنَاقَلُ فِي خَطَاهَا ،
 وَأَنَّ أَشْبَاحَ الظَّهِيرَةِ فِي رَوَاحِهَا تَتَبَاطَأُ ، فَوَدِدْتُ
 لَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَحَكَّمَ فِي دَوْرَةِ الْفَلَكَ ، وَأَمْدَةً

ذراعى فأحوّل قرص الشمس . أو لو أن سِنَّةً
من النوم أخذتني فجأة ، فما أستيقظ إلا على
صوت عربتك مقبلة .

وكنت كلما مرت بي لحظة من نفلتها أعواما ،
أحسستُ فؤادي يغوص بين أضالعي ، وكأنني
بروحى طارت في غمّر فرحةٍ مباغتة ، ثم
أوهنها وعثّ الطريق فسقطتُ تردّث على جسدي
أشلاء .

وإذ طال بي اللبثُ وبرّح ، خيّل لي
أنني أسمع ديبَ دمائي وهي تهرب من عروقي ،
وكانني بوجهي أرى خياله كلما انعكس على ماء
البحيرة وقد كساه الأعياءُ شحوبا ، وشفقٌ وقد
خطّ عليهما الضنى ظلالة .

وعبثاً حاولتُ أن أقف على قدمي من فرط
الوهن ، فألقيتُ بنفسي مضعضاً في زُمَرِ

الأعشاب ، وأخذتُ أقلب فوقها كن يتقلب على
جمر . وما أفتاً بين الحين والحين أن أدفن
وجهي في أعوادها الملتفة ، كمن أتحاشى النظر
إلى المي .

غير أنه لم يكد سمتُ الظلال يتحول ،
وبدأت الشمس تمعن في الميثل نحو الأفق الغربي ،
حتى أدركتُ أن مجيئك أضحي على الأبواب ،
فسرّكت في جسدي قوى خفية ووثبتُ أتأهب
لاستقبالك ، وأعدُّ فؤادي لفرحةٍ موشكة .

١٧

عندما أزيف موعد مَقدَمك ، ومضى الفؤاد
يثب من الفرح ويرقص ، غادرتُ مَجْشَمي بين
لفائف العشب ، وهرولتُ أجمع لك طاقةً من
زهور حديقتي النَّخَب ، ألقى بها عند قدميك

حالما تأتي .

ولقد حرصتُ على أن يخرجني شوك الورد ،
لأصبغ من أرجوان دمي شريطاً قانياً أوثقها لك
به ، حتى أشهدها على مبلغ تفاني في حبك ،
وارتضائي الآلام عذبةً في سبيلك .

وعندما فرغتُ من ربطها وجلستُ أتأملها في
طرب ، ألفيتها طاقةً ذات ألوانٍ وجمالٍ عَجَب .
بعضها كئناياك أضاء ، وبعضها كوجنتيك تورّد .
وثمَّ أخرى ، أُشرببتُ حمرةً كفمك القرمزي .
ويا حُسْن ما عليها من ندى يُسكر القلبَ
كَلِمَاتِكَ ، ولها من عبيرٍ يسرق الروح كإنفاسك .

١٨

يا بُشْرَى ! ها هو ذا الأصيل لاح يخرج
أذياه الذهب . وعما قليلٍ تظهر حبيبتى في ركبته .

إن فؤادى ليخفق خفقةً أعرفها . خفقة
اللقاء الوشيك . وكأني به يلح عربتها بين أمواه
الضوء ، ويسمع حوافر جيادها وهي تخبُّ فوق
طُرقاته الذهبية .

يا رعاك الله يا فؤادى ! إنك لتشمُّ عطر
شعرها قبل أن يحمله النسيم من مواطنه . وترى
لحظَ عينيها ولما يزفُّه الضياء .

وحتى بستانى أيضاً ، كأنما قد تكهَّن له
فؤاده . فهذه أغصانه تتمايد جذلاً لمقدمها .
وعصافيره تزرعد احتفاء بها .

وكأني بالزهور تفتّر ثغورها عن بساتٍ عذبة .
وبالغدير يترشح من الطرب موجه ، فترقص من
فوقه زهرات اللُّوتس مبهجة .

إن بستانى ليهرقها حق المعرفة . وإن حصاه
ليفرقْ وقعَ قدميها من بين ألف وقعٍ ووقع .

اقفزي أيها القلب . اقفزي من بين ضلوعك . ها
هي ذى عريتها تلوح من منعطف الطريق ، وإن
عيني لتبصراتها جيدا .

يا حسنها ! انظريها تقترب وهي تبسم
كفرحة مقبلة ، أو كفجر وضيء آخذ في الشروق .
هلم أيها القلب . هلم وافتح أحضانك .
وتلقها في لف أي لف . ثم انشري أجنحتك
وطري بها إلى فردوس بعيد . وذوقا القبل معا
زاهرت مقطوفة . والعناق أغصانا معطوفة .

١٩

تعالى يا حبيبتي ! تعالى ، إننا زائلون !
تعالى نختطف القبل ! تعالى وعجلى ! إن شفاهنا
في غدي زاوية .

طوبى لهذا الفناء الذى يحجب إلينا الحياة !
أولا أننا فانون ، كنت أقبل لك هكذا فى

شغف ؟ أكان ثمَّ شيءٌ يغريني بالحرص على
اغتيام هذه الفرصة ؟ ولولا هذا الحرص ،
أكان ينبثق اللذة في نفسي ميلاد ؟

إن الشيء لممحوه من وجودنا حتى يغرينا
بالحرص عليه . ولن يغرينا بنفسه شيء ، لو
كان وكنا باقين . لا الدائم من الأشياء محتاج
لحرصٍ عليه ، ولا الدائمون منا إن كان ثمة
بيننا دائمون ، في حاجة إلى أن يحرصوا . إن
الحرص عندئذ أمامهم لمواتية . وما دام أنها
مواتية ، فلا بأس من التسويف في انتهازها .
وما دامت تظل كذلك إلى ما لا نهاية ، فلا مانع
من أن يكون التسويف إلى ما لا نهاية . وهكذا
لن تهبط اللذة نفوسهم المطمئنة .

تعالى ! تعالى ! إنما لا نعدو في أثر شيء
إلا أن يفرّ منا . أو يكون على أهبة ذلك على
الأقل . ثم نكون من العجز بحيث يكتنفنا الشك

فى اللحاق به . ما محل العدو والقنيفة ملقاة
أمامنا وفى أرجلها القيد ؟ أو لو أنه كان لنا ،
إذا هى فرت ، من قوة الأرجل ما نستطيع به
العدو وراءها ليل نهار من دون أن نقف ؟ ثم
حائل بيننا وبين الشئ يجب أن يكون ، لنشعر
بوجوده ونهتم به .

إن الجمال ليغرينا لأنه أبداً يُفلسنا . من
ذا الذى استطاع مرةً أن يقتص شعاعاً من
لحاظ العيون ، أو قبساً من ضياء شفاهٍ تفتّر ؟
كل ما فى الأمر أننا نعدو وراءه ونحسُّ فى ذلك
لذة ، وفى رمى الشباك لاقتناصه ومحاولة العبث .
وكلما كان باهراً فازدادت رشاقةً سهوةً وأمعن
أمامنا سرعةً فى العدو ، كلما زاد ما يتَّسم به
فى عيوننا من طابع الزوال ، فما يلبث أن يعمق
فيها وفى الفؤاد ، تلك الحفرة التى تجثم فيها
ظلاله ، ويترجّع فيها صداه . ماذا تظنين ؟ إن

الزوال هو الذى يخلق الوجود .

بل إننا أنفسنا عدمٌ لو لم نكن زائلين .
لو كنا باقين لما كنا . نحن أحياءٌ فقط لأننا
غداً فانون . لقد ولدنا فى نفوسنا مذ بدأنا نحرص
عليها . وإننا لنعيش فى ذواتنا رهناً هذا الحذر .
الحذر على الحياة الفانية . فى قلب هذا الفناء
نفسه نجد مأوانا . ولولاه لظلمنا هائمين فى تيه
العدم ، عدم الغفلة عن كينونتنا . حتى
ولو كانت لنا على الأرض ظلالٌ تتحرك .

طوبى إذن لهذا الفناء الذى يهبنا الحياة ،
ويخلع على الأشياء القيم ! وطوبى عندئذ للجمال
الفانى ، الذى برز بفنائه أشعارى الخالدة ! أو لم
يكن هو الموعد إلى بها ، فخلقها بذلك من عدم ،
ثم ألهمها بفساط فتنه فتوَجَّها بذلك بالخلود ؟
أوه لم يحبب إلى بفنائه الجمال ، كنت أنظم

فيه الأشعار فتخلد ؟ أرايت إذن أن خلودي
مدين لفنائك ؟ أو ما تدبرين هذا ؟ وتعجبين
لفانٍ راح يهب البقاء ؟

تعالى إذن تنعم بثمره هذا الفناء المقدس !
تعالى نقتطف الحكمة التي تكمن فيه . تلك
الحكمة التي تقول : إن الحياة ما خلقت فانية ،
إلا ليكون لقطفها لذته . فاذا أنتم لم نقتطفوها
وتنعموا ، فوتم عليكم حكمة خالقها كذلك .

أفرايت إذن أننا ما خلقنا فانيين ، إلا ليتمكن
للذات أن تنبثق لنا من فنائنا ؟ وأن هذه اللذات
ما أريد لها أن تنبثق إلا لنستمتع بها ، وإلا
لكان وجودها عبثاً أي عبث ؟

أدركت إذن أن الاستمتاع هو لب لباب
الحياة ، وإلا لكان الأولى أن نُخلق باقين ،
حيث لا ندرك للذات قيمة ؟ وأن هذه الحياة

إنما خلقتُ بحيثُ تستطيع أن تغرينا ، فلم تدخر
وسعاً في أن تزَيِّن لنا بأبداع زينة ، ثم أعطتنا
ظهرها وولت الأدبار لتزيدنا شغفا بها فتمعن
وراءها في العدو ، يؤنسنا ويشجعنا ما يتناهى إلينا
من شعاع جمالها الوضاء وبهرج حلها ذى
الوهج ؟

تعالى إذن ! تعالى ولنبادر ، فإن الفناء
لَمِنْ دأبه أن لا يهل . أوليس فناء ؟ يسير
حشيشاً إلى الهوة التى ينزلق فيها ؟

تعالى ، واذكري أننا سندفع ثمن ما ينبغي أن
نقطف . سندفعه قطفناه أم لم نقطفه . شئنا أم لم
نشأ . لقد وقعنا به الصك يوم أن وضعنا قدمنا
في الحياة ، وليس هناك إلا أن يحل موعد
استحقاقه ، لنؤديه صاغرين . وإنه لَشَمْنٌ باهظ .
يستحق فى سبيله أن نحصر على استيفاء السلعة التى

شريناها به . إنه ، إنه حياتنا .

تعالى ، تعالى ، إن التواني قد يفوت الفرصة .
وإذا لم يفوتها فقد يقال من شأنها . إن الحياة
لمبنية على المسير ، وأما العدو فيه فتتميق
لها . إنه السوط الذي يلهب دمانا الفاترة ، فما
تلبث أن تفور وقد استيقظ معها ما كان هامداً
منا ، وإذا بحظنا من الحيوية يتضاعف ، وكأنما
يعيش فينا بدل الشخص أشخاص . إنه هو
إلا نوع من المهارة في الضرب على ذات الوتر .
الوتر الذي يقول بأن الحياة مسير . مسير في
أثر الفرص . إنه إذن لمسير تحدوه عبقرية .
كالرقص ضرب من المشى ولكنه جميل . أو النغم
ضرب من الكلام ولكنه حلو . إنه لمن الحكمة
بمثابة لبابها .

هيا ولتقطع الشوط عدوا . ولتنظر طيرانا

إن استطعنا الطير . إن جمالك وشبابي ، هذين
الفانيين ، قد علماني كيف أضع إصبعي على السر .
قد علماني قيمة فنائهما الفذ . كما علماني أن العقل
كل العقل في أن أنقل خطواتي على عزف نغماتهما
الفانية . سريعة مشبوبة . وأن لا أتخلف فأثبت
جهلي .

ها هيا ، ولا تترددى . أفانون ونُحرَمَ لذة
فنائنا ؟ أين فك القرمزي ؟ تلك الكأس التي فيها
رحيق ؟ البسِمي وأريني ثنياه اللؤلؤية . ودعيني
أطبعُ قبلةً على جمانها المنضد . ولا تنسى
أن تصبّي في فمي رشفةً من سلافك . إننا
يا « ليلُ » زائلون . غداً تذبل شفتاي . ولا يلمع
في ثغرك ذلك اللؤلؤ البديع . وإنه ليخبو لحكمة
أى حكمة . لكي يعلمني أنه محبب . وأنه يذبحني
أن أتذوقه . وأن لا أبطيء لأنه مجدّد في سبيله .

إني لتدمعُ عيناى ! حزناً على مصيرنا !
ولكنّ الحزن عذبٌ جميل . فيه غيرُ القِيمِ
التي تعيش فيه . والتي من أجلها حزننا .

هاتيه يا حبيبتي ! هاتيهما قبلاً من فاك !
ما أحلى التعاطى فى ظل الدموع ! إنها لتسجل
بتطراتها الثمينة قيمة ما نأخذ . أبكى يا حبيبتي .
أبكى معى . ما أرخصنا بغير بكاء ! وما أتفه
الحياة لو لم تُخلق حزينة ! وفانية !

٢٥

أما ترين يا حبيبتي ، أن منظرنا يصبح أجمل
عندما نبكى ؟ أما نغدو عندئذ كالزهرة خضلاً
الندى ؟ أو كالسما ترسل على الزرع صيّب القطر ؟
غنى بربك أغنيةً حزينة . كتلك التى يُنشدها
الحمام فى الأبراج . واليمام على أيكه فى الفجر .

نعم ، غنّيتها حزينه . كمثّل أغنية الملاح في
البحر . أو الحادي يحوز بقافلته الصحراء . أو الراعي
يهبط البراري مع أبقاره . أو الفلاح يروي من
ماء السواقي حقله . أولئك الأشقياء الذين ينزل
البؤس بتربتهم الطيبة ، فيشمر فيها النغم الحزين ،
يسرّحونه في ألحانهم الساذجة ، أغاني شاكية
تتردد على طول البقاع .

هيا يا حبيبتى غنّي ! وتعقبي بدمعك السخى
أغنيتك الباكية . ودعي قطراته الدافئة تلتقي
ودموعي على خدينا المتلاصقين ، ثم تمزجان معاً
في نهر حزين ، تنعقد من أنفاسه كلما لفحه الجوى
فتمضون ، غمامة تستقر في ضمير الأفق
مكتئبة ، وتضفي علينا ونحن في جاستنا
الهادئة تلك ، ضباباً أشبه بذلك الذي يغمر به
الفجر الأزهار ، أو ظلالاً تشبه تلك التي

يُفِيئُهَا الْإِيَّكَ فِي الظَّهِيرَةِ .

هيا وغنّي ! إن بنفسي لَمَيْلًا لِلْبِسْكَاءِ .
ولاني لَمَّا أدرى لم ؟ كأن بأعماق الفؤاد شجنًا
خفيًا يود أن يسرَّحه . لله تلك الأحزان
المجهولة ، التي ما نعرف مآتها ، والتي ما تفتأ
ترسم على محيانا الكآبة الفاتنة ، وتترعرع
بالشَّجَى أغانيها !

تُرى من أي روضٍ منسى بالفؤاد ، يهب
نسيم ذلك الحزن ؟ أتُرى من بستان حبٍّ
قديمٍ عفى عليه الزمان ، ولكن أزهاره الممهجورة
ما تنبى تبعث بزفراتها خلصةً مع النسيمات ،
فيلفح حرُّها خدودنا كلما سرت ، ويسكب
همسها في آذاننا حديث شوقها المعذب ؟

أم تُرى يهبُّ من أطلال حزن غابر ،
أقام ذات يومٍ بالفؤاد فأضناه ، ثم بلى ولكن

أنقاضه ما تنفكُ تعلق بأذيال الرياح ، وتثير
الغبار حولنا ؟

أم تُراهُ حنيناً غامضاً إلى مواطنٍ مجهولة ،
ضممتنا مغانيها يوماً من الأيام ، في عوالمٍ غير
هذا العالم ، وما تنسى أطيافها الخفيفة تعاود
الفؤادَ وتشوِّقه إلى ربوعها ؟

أم هو تعلقٌ بأهداب حيواتٍ سابقة ،
عشناها قبل أن نعيش حياتنا تلك ، ثم انطوت فما
عدنا نذكر عنها شيئاً ، غير أن صداها ما يبرح
يتردد في حنايا الفؤاد على هيئة حنينٍ حزين ؟

أم لعله انجذابٌ خفيٌّ إلى نور وجه الله ،
مذ تركت أصابه يومَ خلقنا طابعها علينا ،
وأوحت إلينا بأن نكون دائماً الحنين إلى ذاته
سبحانه ، رغم أننا نعيش رهْن احتجاجها عنا ؟
أوّاه يا حبيبتي ! هاتي غنّيني من الشدو

الحزين . وحسبي بنعمك المبحوح أحزاني اليتيمة ،
تلك التي تَوَلَّى زمانها فنفاها النسيانُ إلى زاويةٍ
مهجورةٍ بالفؤاد ، كما يُنفى الصَّبَا النضيرُ في
تغشُّنات الوجوه الهرمة .

هيا وابشئيا إلى الحياة في أدمع جميلة ، تدرفها
كلما هاجني الشدو عيناى ، وَيَزِفُّ قَطَرُهَا إلى
النور بقاياها من جديد ، وقد ألبَسها من ذو به
الشفيف ثوباً قشيباً يردُّ عليها صباها .

٢١

وَلَدَ الدهرُ وذا مهدُّ ابنه الصباح على
أكفٍّ أمِّه الأيام تهدهده . وذى زهورِ الرياض
تفتحتْ تستقبل الطفلَ وتصافح خديه بأنفاس
العبير . على حين زغرَدَت الطيرُ تزفُّ مولده
السعيدَ إلى أبيه الزمن ، وحواليها من الفراشاتِ
ذوات اللَّمَح وصيفاتٍ يمسكنَ شموعاً مُوقدة .

فَقَسَمَ افْتَحْ عَيْنِيكَ الْمَسْكُورَتَيْنِ بِالنَّعَاسِ وَتَسَلَّلْ
مِنْ مَنَافِيزِ أَحْلَامِكَ . وَاحْتَفِ بِالْوَافِدِ الْجَدِيدِ عَلَى
شَرْقَةِ اللَّيْلِ ، وَتَقَبَّلْ مِنْهُ الْهَدَايَا وَرُوداً عَلَى
وَجَنَاتِ السَّحَابِ ، وَحَزَماً مِنَ الْجَيْنِ نَاولَتْهَا
أَيْدٍ مِنْ ذَهَبٍ .

وَاقْطَعِهَا أَوْ تَلَقَّفْهَا وَرُوداً مِنَ الْفَرْدُوسِ
الْبَعِيدِ دَنَتْ ، وَعِيدَاناً مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ اقْتَضَبَتْ .
وَاسْتَدْرِ بِرَهْمَةٍ نَاحِيَةَ الرِّيَاضِ رِيثاً تَنْشَقُّ مِنْ
عَبَقِ الزَّهْرِ نَفْحَةً ، أَوْ تَحْتَسِي مِنْ أَكْوَسِ الْأَنْدَاءِ
رَشْفَةً .

قُمْ أَيَا نَاعَسَ اللَّيْلِ وَارْقُبْ كِتَابَ الظَّلَامِ
تَتَجَنَّدُ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الضُّوئِ ، وَالدَّرَارِي تَتَهَاوَى عِنْدَ
أَقْدَامِ مَلِكَيْهَا الشَّمْسِ وَقَدْ عَقَدَتْ فَوْقَ مَفْرَقِهَا
التَّاجَ لِتَحْكُمَ .

وَارْهَنْ وَأَعْجِبْ لِلنَّحْلِ يَمْرَحُ فِي مَهَادِ الزُّهْرِ

وَيَمْتَصُّ مِنْهَا الرِّحْقُ ذَا الْعَبِيرِ الْمُخْتَزِنِ . وَتَمْتَسِعُ
بِرُؤْيَةِ الْأَبْقَارِ تَسْتَمِرُّ الْمَرْعَى فَتَجْتَثُّ الْعُشْبَ ،
عَلَى أَغَانٍ تُنْشِدُهَا مَزَامِيرُ الرِّعَاةِ ، أَوْ طَنِينٍ مِنْ
سَوَاقِي الْحَقْلِ آتٍ .

قُمْ وَخُذِ الْجَمَالَ الْحَقَّ عَنْ الطَّبِيعَةِ أُمَّنًا ،
أَوْ النِّعَمَ الْأَصِيلَ عَنْ نَائِ رَاعٍ . ذَاكَ حَسَنٌ لَمْ
يَشُبْ طَبْعَهُ دَخِيلٌ ، وَذَا مُنْشِدُهُ لَمْ تَشْوِثْهُ
فَطَرَتُهُ حَضَارَةٌ .

هَلُمَّ وَانْفُضْ وَخَمِّ النَّعَاسِ ، وَبَصْحَوَةِ النَّجْمِ
السَّنِيِّ أَيْقِظْ فُؤَادَكَ . هَذِي الطَّبِيعَةُ كُلُّ يَوْمٍ تَجْدِدُ
نَفْسَهَا ، فَهِيَ وَجَدَّدُ شَبَابِكَ . هَلُمَّ وَاخْلَعْ مَعَ
الْمَرْوَجِ قَمِيصَكَ الْبَالِي ، وَاقْتَضِبْ مَعَهَا مَوَاتِ
نَبَاتِكَ . وَاسْتَبْدِلْ كَمَا تَسْتَبْدِلُ بَوْرَقَاتِكَ الصُّفْرَاءَ
أُخْرَى قَدْ انْبَثَقَتْ نَضِيرَةٌ .

هَلُمَّ وَاشْدُدْ مَعَ الْأَطْيَارِ ذَوَاتِ النِّعَمِ الْوَاحِدِ

واللحن السرمد . يُسمع مهما يُسمع ليس
تبلى جدته أو تعترى سامعيه سامية . هلم
وخفّف بالشدو أثقال الهموم ، وطبّرهما حين
تجشم فوق صدرك في نغم . ودّع الناس للخليّين
من لم يهزم سحر الجمال فلم يذوقوا في حبه
بُرّحاه .

٢٢

كأني بتنهّدات العاشقين ودقات قلوبهم الواجفة ،
تكاد أن تفضي سرّاً ما اعتلج بين جوانحهم من
هوى ، وترشد الحساد إلى مخابئهم التي لا ذوا بها
بين تلافيف الأشجار وعلى منحدرات الشواطئ ،
لولا أن نبراتها الخافتة ما تلبث أن تضيع في
همسات موحاة من خريّر الجداول وخفيف
الغصون .

ولم ليحدثني قلبى بأن البلابل ما غنت ،

ولا العصافير غرَّدت ، إلا لتدارى على تلك
الأشواق التي ما تنفك تنبعث منهم منغومة . وأن
الأشجار ما استطالت أغصانها والتفتت ، إلا
لتُفيء عليهم الظلال وارفة ، وتُخفف على
لقائهم من أوراقها ما يقيم شرَّ العيون .

وكان الطبيعة تلك اللعوب ، قد هيأت
للحبيين من أحضانها أكنافاً يأوون إليها كلما
شاقهم الغزل ، ثم أغرقتهم في بحرٍ لجيٍّ من
موسيقاها السحرية ، حتى لا ينم عنهم من ذواتهم
شيء من تلك الأصوات التي يرسلونها عفواً وفي
خفة قياد .

إن موسيقى الطبيعة وموسيقى الحب ، لتهتزجان
معاً في كأس واحدة ، فتألف منهما أغنية
متسقة النغمات شجية الوقع . وإن الوجود
ليشربها كل صباح ، فما يلبث أن تعثره نشوة
مقدسة ، ويعلو وجنتيه تورُّد جميل .

تفرك الجميل يلتصع على فمها الخابي فيكسبه جماله
المستعار .

صفحةً عني ! ورحمةً بي ! وليسكن لي من
عتاب ضميري على أن خنتُ بعينيَّ عهدك ، ومن
تلك الخيبة التي رأيتُ جمالها يُمنى بها وكما
لا يلبث أن يمني كلُّ جمالٍ بجوارك ، درساً أيَّ
درسٍ لي .

مهلاً حبيبتي ! ماذا أنت فاعلةٌ بي ؟ لا وربك
ما يرضيك أن تتخلي عن صبك ، وأن تتركه بعدك
فريسةً في أيدي الليالي القاسية . تريثي ! واذكري
أيام الصفاء الماضية . ووفائي لك منذ تعاهد منا
على الهوى القلبان . ودعني كل ذلك يشفع لي .
اذكريها ، ولا يكنْ لزلة يومٍ أن تودي بحب
أعوام .

هيا ، واسمحي ليديَّ الأمتين أن تكفكف

دموعك . وأن تغسلا إثمهما في قطراتها الصافية .
ثم تصفحني عني ! نعم ، ونعود كما كنا .

أو إن يكُ الآثم ما تطهره إلا دموعه ، فهذي
دموعي أيضاً تشهد على أنها غسلتُ إثمي ، وردتني
إليك نقيًا كعهدك بي .

هيا يا حبيبتي . هيا وقولها كلمة صفح .
ولا يكنْ للنعمة إلى قلبك السمع سبيل .

٢٤

إلى أين يا آخذة فؤادي معك ؟ إلى أين
وتتركين المضي لِمَن ؟ ألا فرات تنهش قلبه ؟
أم للدموع تقرّح أجفانه ؟ أم للذكريات تُريه
منك ما به تضنُّ وتبخل ؟

أمعذبتني إلى أين أزمعتِ الرحيل ولم ؟ تريثي
وارفقي بحبيبك . إني لا أعلق مِن كلفٍ بكِ
وبأذيالك أتشبث . خذيني يا تاركتي هلك . خذيني ،

ولا تتركني لليالئ أبكيك فيها وأتوجّع .

رحماك ! رحماك ! يا ربّ القلب الحنون ! يا ذات
القدّ البديع والوجه الحسن ! حرامّ أيامنا الحلوة
تذهب . حرامّ عليك وربّك .

ويلاه ! تركتني بلوعتي ومضت . وتوسلاتي
ضاعت أدراج الرياح .

ذهبت ! ذهبت الجميلة ، ولحالي ما رثت .
ليتها قبلت مني ! ليتها صفحت عني ! ليتها ،
ليتها لصباتي رقت !

يا مؤذنتي بالهجر والقلب منه يذوب ، من
بعدك إذا الموعد حان أنتظر ؟ من في مقصوري
المفروشة بالديباج والورد أستقبل ؟ لمن أعدّ
الثواني وأنا على أحرّ من البحر في ارتقاب قدومه ؟
حتى إذا ما طرق أذنيّ صوت خطاه الموقّعة ،
قفز قفزة الطائر قاي ، وخفّ إليه مصفقاً

يلقاه .

مَنْ بَعْدَكَ يُسَعِدُنِي بِطَلْعَةِ الْوَجْهِ الصَّبِيحِ ،
وَعَلَى فَمِهِ مِنَ الْإِفْتِرَارِ ضِيَاءٌ وَعَلَى خَدِّهِ مِنَ
النَّخْفَرِ وَرْدٌ ؟

مَنْ بَعْدَكَ يَمْنَحُنِي يَمْنَاهُ فِي تَيْهِ الثَّمَرِ ، وَإِذَا
مَا اسْتَبَدَّ بِي الْوَجْدُ خَرْتُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ أَتَمْرَغُ ؟
مَنْ بَعْدَكَ أَعْطَفَ قَدَّهُ الْمَمْشُوقَ ، وَعَلَى
وَجْنَتَيْهِ أَهْوَى بِالْقَبْلِ ؟

مَنْ بَعْدَكَ عَلَى رَكْبَتِي أُجْلِسُهُ ، يَا مَنْ كُنْتُ
أَدْلَكَ كَطِفْلَةً ؟ وَرَأْسَ مَنْ أَسْنَدُ يَدِي ،
وَيَمِينَايَ سَاقِيهِ أَضْمُ ؟ يَا رَبَّةَ السَّاقَيْنِ الْبُضَّتَيْنِ ،
وَعَلَيْهِمَا مِنْ أَصْفَرِ الشَّعْرِ أَطْيَافُ ذَهَبُ !

بَشَعْرَ مَنْ أَعْبَثَ بِأَنَامِلِي ، وَفِي أَيِّ مَفْزُقٍ
يُشَبِّهُ الصَّبِيحَ وَضَاءً زَهْرِيَّ أَرْشُقُ ؟

جَيِّدًا مَنْ بَعْقُودِ الْيَاسَمِينِ أَطَوِّقُ ،

وَمَنْ بِأَسَاورِ الفلِّ النّهيْدِ أزيّن معصمه ؟

أَنفاسٌ مَّن تَلَمَحَ خدي ، وفي كيانِي تَمشي
كالهَب ؟

فَمُ مَّن إذا ما الشوقُ جُنَّ أراوده ،
فإذا ما مالَ أنشأتُ أقطفُ ورده ؟ يا ربةَ الشجرِ
القرمزيِّ ، وإذا ما افترَّ فعن بَرَد ؟

رُضابَ مَّن أرشف ثم أسكر برحيقه ؟
يا مَن لِملاكِ المِليحِ حلاوةُ الشهدِ وافترارُ
الحَبِّبِ ! ولا عيبَ فيه سوى أنه كالرّحيقِ مسكرٍ ،
وإن لم يكن له منه إلا حلالُه .

مَن ؟ مَن سواك يطعمني الشُّكولاتَ من
ثغره ؟ ويسكرني بالمعسول من خمره ؟

يا ربةَ الحسنِ البديعِ ، يا مَن قد أخجلت
الوردَ حمرةً خدك ، وأثار حسدَ الغصنِ الممشوقِ
من قدك ، مَن بَعْدك أهوى أيا هاجرتي ،

وقى هواه أذوب وأتبرّح ؟

مَنْ بَعْدَكَ لِلطَّلَبِ الْعَزِيزِ يَتَمَنَاهُ عَلَى فَأَجِيبْ ،
وَإِذَا مَا أَنْزَلَى أَمْرًا فِي الْفُؤَادِ فَبِالْأَمْرِ أَصْدَعْ ؟

مَنْ بَعْدَكَ يَبْسُمُ فِي وَجْهِهِ إِذَا مَا اكْتَهَرَ
جَبِينُ الزَّمَانِ ، وَعَلَى يَخْنُو إِذَا مَا الشَّقَاءُ أَلَمَّ ؟

مَنْ بَعْدَكَ يَحْمِلُ مَشْعَلَ أَمَلٍ ، وَيُنِيرُ
أَمَامِي الطَّرِيقَ الْمُدْهَمَّ ؟

مَنْ بَعْدَكَ أُرْصِدُ لَهُ الثَّمِينَ مِنْ وَقْتِي ، وَعَلَى
حَبِّهِ أَقْفُ الْجَبَّارَ مِنْ جَهْدِي ؟

مَنْ ؟ مَنْ ؟ لَا أَحَدٌ وَاللَّهِ بَعْدَكَ . يَا حَامِلَةً
ذِكْرِي الصَّبَّ السَّعِيدِ ، وَأَوَّلَ مَنْ لَهُ الْقَلْبُ فِي
الْأَيَّامِ الْخَوَالِي خَفَقَ !

وَيَلَاهُ ! وَيَا شَدَّ مَا أَقُولُ مِنْ بَعْدَكَ وَيَلَاهُ !
قُضِيَ الْأَمْرُ أَيُّهَا الصَّبُّ وَجَفَّتْكَ الَّتِي كُنْتَ
عَلَيْهَا تَشِيدُ أَمْلَكَ . وَلَسَكُمْ تَوَسَّاتٌ وَأَرْخَصَتْ

الدموع فما لان لها فؤاد ، ولا رحمت دموعك .

أُتْرى يا حبيبتي يترفق بي طيفك ، ويزورني
مُليماً في الكرى ؟ فيؤنسني بمقامه العذب
برهة ، ويعيد على جفني المشتاق لمحات من
عهود ماضية ؟

تُرى وأضمُّ منك إذا ما ضمنتُ خيالاً ،
وألثم إن لثمتُ وهماً باطلاً ؟ وأفيق فأذا اليدان
خاليتان مما ضممتا ، وإذا الفم صفره مما عليه
أطبّق ؟

كلا ، فما يدأى والله تطيقان منك الفراغ ،
ولا فهي على بُعدك يصبر .

هيا أيها الصبُّ ونُحِّحْ وابلِكِ على محنتك .
هيا وتَفْطَرِي يا قليل الحيلة .

ويا نفسُ لم يعدْ في دنياك من خيرٍ ففارقِها

وَعَجَلِي . وَأَنْتِ يَا عَيْنُ أَغْمَضِي فِي التُّرَابِ
انْسِيْ أَحْزَانِكَ .

وَيَا تَارِكِيْ وَفُؤَادِيْ مَعَكَ ، صَلِّ وَاطْلُبِي
الرَّحْمَةَ مِنْ أَجْلِ قَتِيلِكَ . أَنَا عُودِي فِي غَدِي
ذَابِلِي ، وَمَعَ الرِّيحِ وَحَيْثُ تَذْهَبُ ذَاهِبِي .

٢٥

أُطْلِقْنِي يَا إِلَهِي مِنْ إِسَارِ ذَلِكَ الْحُبِّ الَّذِي
حَرَّمَ عَلَيَّ بَنَاتِ حَوَاءَ إِلَّا وَاحِدَةً .

أُطْلِقْنِي كَمَا تَطْلُقُ الْفَرَّاشَةَ فِي الرُّوْضِ ،
تَلْتَمِ كُلُّ زَهْرَةٍ ، وَتُعَانِقُ كُلَّ غُصْنٍ .

أُطْلِقْنِي كَمَا تَطْلُقُ الْجُدُولَ يَلَامِسُ كُلَّ
حَصَاةٍ ، وَيَصَافِحُ كُلَّ نَبْتَةٍ .

أُطْلِقْنِي كَمَا تَطْلُقُ النِّسِيمُ السَّارِي ، يَهيمُ بِلا
مُسْتَقَرٍّ ، وَيَهْبِطُ كُلُّ مُتَجَسِّعٍ .

أطلقني كما تطلق الطباء في المرعى ، تأكل
ما تشاء وتدع ما تشاء .

أطلقني كما تطلق النعم الحبيس ، ينسكب في
كل مسمع ، ويلبس كل جرح .

إلهي وهبني من الجمال رياضاً لا تُحصد ،
تُنبت الزهر ما يُعد .

إلهي واجعل لي من ظلالها مَفِيئاً أوى
إليه ، ومن قيظها جِراً أَثْقَلِيَّ عليه .

إلهي وبعثِرْ في مهادها الورد ، أتمرغ
بين شقائقه وأثقل على شوكة .

إلهي ودع كُحْلَ عينيَّ من مرآي الغيد
كالمهن ، ومسيل دموعي من تدلّهي في
عشقهن .

إلهي واجعل لشفتي تذكاراً على كل فم ،
ولاهيني دموعاً على كل خد .

ما أنا إلا شاعرٌ خلقتُ لأمرح في رياض
الحسن ، كما تمرح النحلة في قلب فجرك .

إلهي وحي ليلى يعوق تصفيق جناحي ،
ثمّنه حرّريّني ، وعنه ربّ اصرفني ، وتيمّني
ببناتِ حواءَ جميعها .

إلهي وأرسلُ بأعذب الألحان لسانِي في
التشبيب بهنّ ، كما ترسل البلبِلُ يهيم في كل
واديّ ، ويشبّب بكل زهرة .

٢٦

ربّ هب لي من غيدك الحسانِ مجموعةً
مختارةً ، كطاقة الزهر حوّت منه أفانين .

فيمنّ سمراتٌ كظلال الأهداب على الجفنِ ،
وشُقُرم كأنهنّ الأصيلُ الذهبيّ يتوهج . وبين
بين كحبة الحنطة في موسم الحصاد .

ويبينهن من سُود العيونِ الفاتكاتُ اللحظِ ،
ومن زرقهنَّ الناعساتُ الطرُف . ومن ذواتِ
الآعين الحضر الحالمات .

والمضرَّجاتُ الخدودِ تَضَرَّجُ الوردِ ،
والشاحباتُ الوجوه كأخيمنَّ القمر .

والضامراتُ خصورهنَّ كمثلِ الظباءِ ، وذواتُ
القدِّ الخصبِ كمثلِ غصنِ البان .

إلهي واتركني أتقلبُ بينهن كما تتقلب النحلة
بين زهورك ، ومن ثغورهن ذواتِ الافترار
أرشف الرحيق مختلفاً ألوانه . ثم أُرسله وقد
أنضجه الفؤاد ، شهداً أقدامه للناس هديةً في
أشعاري .

أيها الشاعر لآنت أجَلُّ من أن يكتوى
 بالعشق قلبك . كل ما حولك من جبال ، إنما
 خلق لتنساه وإن شوق عينك . يسترعى انتباهك
 العبقريّ للحظة ، ريثما تسحره ألفاظاً تنضد منها
 قصائدك ، وإذا به يصبح نندك . وإذا بك تسلوه
 لتذكر غيره . إن هو إلا ليعصا سحر كموهوب ،
 مهرق الدماء على مذبح شعرك . فكيف بالله هواه
 يكبلك ، أو سحر جفنيه يأمر لبك ؟

هيا إذن صفق بجناحيك وطرف وجوب في
 رياضته . واقطف منه ما أنت مشتته ، وقلبك
 فالسته يصبح لك ويكن من كلماتك . وإنه
 إذن لبعبك الخافق القلب السباق إلى أن
 يدنو منك ويغدو من دررك وفي عقود شعرك
 النضيدة ينتظم .

إن سالتى تفيض بالزهر العجب ! ولانى
 لأمأؤها كلَّ صباح ، من حديقة هناك تذب
 برية ، فى مواطن الفؤاد الغير منظورة ، ثم أمضى
 بها إلى شواطئ الأنهار ، حيث العذارى فرحات
 بحمال الصبا ، فأبعهن زهورى لقاء نظرات من
 عيونهن ساحرة ، أو بسيمات من ثغورهن
 مضيئة . إليك يا غادى من سالتى زهرة ،
 ودعنى أرشقها فى مفرقك . ثم أقف برهة
 أتأملك على تغريد البلابل وغناء العصافير .

إنها وردة ويا لها من وردة ! حراء تحمل
 فى مباسمها أحاديث شوقٍ طاغ .

وتلك أيضاً ياسمينات برية ، فى وسعى أن
 أنظم منها إكليلاً أعقده على جبينك .

وهذا فل يمكننى أن أنضد من حبباته

الؤلؤية ، عقداً أطوَّق به عنقك .

ونتم أيضاً نرجس^{هـ} ترمز للعذاب صفراء^{هـ} ،
إن شئت صفت لمصمك سواراً من زهره
الذهب . إن سلتى عامرة . إنها سلة^{هـ} عجب .

يا بشرى ! ها هي ذى ثياك تفتت^{هـ}
عن بسملة^{هـ} مضيئة . يا لهذا الصبح المبين !
يا للفلق !

آه من بسمتك هذى ، التي تدير الرؤوس !
كأنى بقاى يغمره نورها اللججى ، فما تبدو منه
إلا فقاعة^{هـ} طافية . حلماً لقد أصبح قلبى .

وها أنت ذى نظرين إلى عيني^{هـ} وتساءلين ،
وكأنك تتوسمين بهما جنونا . ولعلك أيضاً
تساءلين من أى خمر شيطاني^{هـ} شربتا ؟ إذن
فاعلى أنهما شربتا من حسنك . وإن^{هـ} به لخمراً
يرد^{هـ} العيون مجنونا .

انظري إليهما ، ترى سحرك طافياً فوقهما ،
وقد استدرج إليه من الأعماق أشواقى . انظري
كم تتألقان ، واحكمى . وسلى نفسك عن سرِّ
ذلك الشيء الذى يبعث الأشواق على العين
مضيئة . إن ما بي إذن جنونٌ ولكن لا كالجنون .
إن هو إلا شوقٌ عريضة بالعين شب . إنه
جنونٌ ولكن عجب .

وافرحتا ! لقد لمحت شعاعاً من عينيَّ يخرق
مقلتيك ويغوص . ولا بد أنه قد استقرَّ منك
فى القلب . فسماً بعينيك ستطربين له أىَّ طرب .
إنى لعلّى هذا أراهن . ذلك أنه شعاعٌ من عينيَّ
خاصتاً للشوق . به من قوة النداء ما يدع
القلوب تجيب . إنه أيضاً لشعاعٌ عجب .

ما أحسب أن قد عادت بك إلى رفض
هديتى حاجة . قضيت الأمر وأخذت بعواقب

سحرك . ووقعنا معاً في فخٍ نصبتِه . سألني
إذن ما تشائين . مَرى أقدمُ لك سلتى كلها .

وما من ضيرٍ عليَّ إنْ أفعَل ، ما دام في
وسعى أن أملاًها من جديد . إن زهر بستانى
لجيدٌ موفور . وما هو مما بالقطف ينفد . هو
مثل أشواقى يتجدد . كل يومٍ براعمُ منه تتفتح ،
وأخرى للوجود تنبثق . وإن أحواضه لشاسعة ،
تلتقى والأفق إن كان ثَمَّةَ ملتقى . وإنْ أنشطَ
المناجل حصداً لتكلُّ دون أن تأتى عليه . ونجوم
السماء لتتضاءل أمام عديده . ذلك أنه ينمو
ببستان غُرسٍ على قلب . قلبٍ شاعرٍ لا حدودَ
لمملكته . إنه بستانٌ عَجَب .

تأني هما عيناك بدأتا تحزنان . الوداع إذن .
ما كان يجب أن تحزنى . ماذا كنتِ تظنين بي ؟
إنْ أنا إلا شاعره يبيع العذارى زهرَ الحب .

إِنِّى أَمْرِى عَجَبٌ .

نعم . وما أَكْثَرَ ما قَدْ بَعَثْتَنى مِنْهُ !
وما أَكْثَرَ ما قَبَضْتُ مِنْ الثَّمَنِ ! لَقَدْ كُنْتُ
أَقْدَمُ لَهْنَ الزَّهْرَةِ الْمُبَكَّرَةِ فِى الصَّبَاحِ ، فَيَنْقُدُنِى
ثَمْنُهَا قَبْلَةَ رَقِيقَةٍ ، أَوْ ضَمَّةَ هَيْئَةٍ ، يَسْمَحُنِ لى بِهَا .
وما مِنْ مِنْهِنَّ أَخَذْتُ مِنْ زَهْرَى ، إِلَّا عَادَتْ
تَتَرَقَّبَنِى كُلَّ يَوْمٍ ، وَتَعْرِضُ عَلَيَّ ثَمْنًا أَبْهَظُ .
أَفَقَدْ سَمِعْتَ إِذَنْ ؟ إِنِّى لى لِحَدِيثٍ
عَجَبٌ .

الوداع يا غادِتى . إِنِّى ذَاهِبٌ أَعْرِضُ زَهْرَى .
ثَمَّةَ عِذَارَى كَثِيرَاتٍ يَنْتَظِرُنَهُ . وَاعْجَبَا لَكَ !
ها أَنْتِ ذى تَتَشَبَّهِينَ بِسَلَّتَى ، وَبِرَغَمِ ما عَرَفْتَ
مِنْ أَمْرِهَا . أَوَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ أَزْهَارَهَا مَغْرِيَّةٌ ؟
وَإِنْ إِغْرَامُهَا لَا يُقَاوِمُ ؟ وَإِنِّهَا أَزْهَارٌ عَجَبٌ ؟
والآن ، انْتَقِ مِنْهَا ما تَشَائِينِ . وَالْأَسْفَا ، يَلُوح

لي أن النرجس الأصفر من نصيبك . النرجس
رمز القلق والعذاب . لا بأس فإن الجمال لفي
هذا القلق . والشعر لفي صفرتة الرقيقة تلك .
تلك الصفرة التي تخفي في شحوبها سهاد ليالي
وحديث ضنى طويل . لنعم الزهرة هو زهرة
المعذبين ! أولئك الذين نزل بقلوبهم الألم فأطلق
ألسنتهم من عقاها تجأ بالشكوى ، وتبث البث
في نغم حنون . أمّا ترين إذن إلى أنه زهرة
العشاق ؟ والشعراء أولئك السحرة ؟ الغارقين
في لجج الألم ؟ والناطقين بالعذبة أنغامه ؟
وأنه زهرة عجب ؟

إلى إذن بمعصمك الجميل ، ودعيني أطوقه
بسوار من زهره الذهب . ثم أتركك وأمضي ،
بسلى العجب . بعد أن أقتضي الثمن قبلةً من فلك
معسولة ، وضمةً من صدرك ملهوقة .

إلى يا غادتي . بمعصمك العجب . ذا النرجس

الذهب . يطاوع ناعمه . فساتي لي فمك . فمك
العجب .

٢٩

إلهي لا تأخذني بمرحى إن شدوت ، وهبني
من بركتك ما أستعين به على تجميل أنفاسي .

إلهي واغفر لي أن جَوَّبتُ آفاق أشبَّ
بالحسن ، وأقطف من رياضه الثمر الحرام .

ما أنا إلا بابل يغرد في قلب فردوسك
الأرضي . وهذه أغاني تلمس بأجنحتها وردة
التَّوَّاق ، فيرتجف طرباً تحت ملمسها ، ويحمر
أمام غزلها خدّه .

ولقد شربتُ الخمر خمره حبه ، فأفعمت
قلبي بمرحٍ مقدس ، وأطلقتُه في الأسحار بالأغاني
العجب .

وإني لست خفشي الطرب فأعلو حتى تلامس
شفتاي التفاح في الغصن ، ثم أهبط فأضم زهر
المرج الداني إلى تربته . وأنا فما أنا أعبت ،
ما أنفك أرسل الأسجاع تُصَيِّب العابد المتبتِّل .
إلهي ، لم خلقت الزهر يتأرجح في الروض ،
ويُسكّر بعبيره النفوس المشوِّقة ؟

لم خلقت الفواكه تميد بأغصانها وتغري بلحمها
كلّ ذي ثغر غزِل .

لم خلقت الغدير يترقق ماؤه ، وطرزّت
بالنضار شطآنه المتعرجة ، ثم أفأت عليه
الظلال ترطب منهلّه وتغوي به الصدور
الحَرَّى ؟

إلهي ، لم خلقت كل هذى الفتن ، وخلقتنى
أنا البلبل وفي صدرى نغم حبيس ، ليس بينه وبين
أن ينطلق ، سوى أن يدنو منها ثم يصوغ من

نورها أجنحةً يصفق بها ويطير ؟

إلهي ، أنزل الرحمة والعفو علي بليلك ،
ولا تنظر بعين الريب إلى نغمي وإن بعث
القتل . أشهد ما أغاني إلا أنفاس مؤحاة
من ثقبوب نايك السحري . فتركني يا إلهي
أطلقها تسبح بك ، وتضوّع في الكون
شذاك .

٣٠

ادخلي بستانى يا غادى الجديدة . ادخليه على
الرحب والسعة . وحلى عليه ضيفة جميلة ، مثلاًها
العين ما رأت . مكرمة الوفادة كالطير والنحل
والفرّاش . تقهجم عليه الأبواب من دون استئذان ،
فيتلقاها في حفاوة وفرحة قلب ، ويفتح لها فؤاده
تمرح فيه أنى تشاء وحيث تشاء ، وتملاً أفنائه

طرباً وبهجة .

انظري ! إنه ما يخلو منها أبدا . وإنه منها
لنفسى هرج دائم . يا حبذا الهرجُ هذا والمرج !
إنه ليخلق لي منه ملكة صغيرة ، وجلالاتي
ولا نخر أكون ممالكها . وهذه الطير وزرائي ،
وحريمي الزهور ، والصفادعُ الخدم .

تضحكين ؟ وتقولين خيالاً ظريفاً ؟ شكراً ،
ضحكتك أظرف . بودى أن أعرف من أى ذهبٍ
سميرى صيغ ذلك الجرس الذى فى فمك ؟
وبأية يدٍ رشيقة تدقينه عندما تضحكين ؟

هكذا أستدرجك للضحك مرةً أخرى . فى الحق
أن جرسك هذا راقى كثيراً . عفواً ؟ أمّا
أكفُّ عن الهذر ؟ فى وسعى إذا كفَّ جمالك
عن أن يبعث الطرب فى قلبى .

ماذا أفعل ؟ أروى بستانى . أن أتعهد

زهورى لهمو أحب الأشياء إلى . انظري ! إنها
عطشة . تسكاد أن تذبل من القَيْظ . أمّا تريّنها
تلمث ؟ مسكينة^١ هي ! ما أجملها حين تشرّيب^٢
بأعناقها لتلتقط رشاش الماء ! أمّا ترين إلى هذا
الماء ، كيف يتصاعد من النافورة لجينياً ،
ثم ينثى عند مسقط الضوء ويهوى في ألوان
قزحيّة ؟ مثل هذا تريّني أعشق مهجى هذى .
مهجة تعهد بستانى .

ثم أمّا تريّن إلى الجدول الرقراق ، كيف
يجرى الماء فيه مرتعشاً ، ارتعاش الفؤاد الواجف
في حضرة الحبيب ؟ وكيف تلتوى سواسية^٣
موجائنه مع كل منحني ، وكأنها أنغام تتلاحق ،
بعثت بها آلات^٤ تعرف متسقة ؟

وهذه الحشائش القائمة على ضفتيه ، أمّا ترين
كيف أنها تنثى في شوق مع مسيله ، وكأنها

تتعلق بأهداب التيار ؟

إن بستانى جميل يا غادى . خصوصاً عندما
تكون أزهاره عطشة . إنها لتلتصع عندئذ بضياء
الرغبة فتبدو أكثر جمالا . أما تشهدين عليها
هذا الرفيف ، كلما مرقت بجانبها قطرة ماء ؟
واحرام لها ! كل قطرة تمر عليها ، تسكاد أن
تنزع منها الروح من فرط الشغف ، فتبدو
لكثرة ما طفا عليها من روحها وكأنها بضياء
مبهجتها تتألق .

والآن ، انظرى عينينا . أما يلتصع فيهما ضياء
يشبه هذا ؟ أما تريئنا أيضاً زهرتين عطشتين ؟

ماذا ؟ تقولين إنك حقاً ظمأى ؟ نَهَكَكَ
القيظُ على طول الطريق ؟ مرَّ حَى مرَّ حَى !
ها هى ذى الجميلة تتعامى عن قصدى . ليكن أن
تهنأ بلفها إلى حين . ولألفنَّ وحياتِ عينيها ألفها .

حسناً يا غادتي ، ألك في جرعة ماء ؟ من
هذا الغدير الصافي ؟ في استطاعتي أن أملأ منه
راحتي وأسقيك . تماماً كما أسقى عصافوري الصغير .
آه منك يا عصافورتي الصغيرة أنت ! خذي .
ها هو ذا الماء . هنيئاً لك ما شربت .

ماذا تقولين ؟ يبدو لك أنني بالضبط كما
سمعت ؟ ها ها ها ! هو ذلك يا حسنائي .
إن من حدثوك عنى لم يكن ذبوك الخبر . وعندما
تغادرين بستانى هذا ، وبعد مكثٍ طويل إن شاء
الله ، ثم عودٍ في الغد أحمد ، لن يَبقى لديك
شك في هذا .

والآن ، هل ذهب ظمأك ؟ كلا ؟ لعلك
حَرَسى من ضغط ملابسك ؟ أما ترين أنه من
الأوفق أن تخلعي قبعتك ؟ وتندسى جبينك المحموم
بحفنة ماء ؟ أأخلعها لك ؟ إنها لمهمة إلى نفسي

حبيبة . قرّبي جبينك مني . لا يشتغل بالك من
أجلها . سارشتها في عريش العنب ، فتخالها
العصافيرُ فزّاعةً . فتهرب . ما الفزاعة ؟ عصاة
يُلبسها البستانيُّ ملابسَ الآدميين ، حتى إذا ما
رأتها الطيرُ المغيرة على الثمر ، حسبتها إنساناً
وولّت الأدبار .

إنما قولي لي بربك . من كان يتوقع أنك
تُرينني الفلق في صميم الظهيرة ؟ وبأى ناموس من
نواميس الكون أمكن ذلك ؟ لا تفهمين ؟ وتطلبين
منى أن أوضح ؟ حسناً عندما رفعت قبعتك ،
ألم يبدُ لي جبينك الواضح ، وقد انبثق من
تحت شعرك الفاحم ، مثلاً بمثلٍ كما يتسأل
الصباح من قلب الظلام ؟ اضحكي ما حلا لك .
هيا ، دقّي الجرس . دقي قلبي .

والآن ، مرةً أخرى ، هل ارتوى ظمأك ؟

كلاّ أيضاً ؟ إذن لعله حذاؤك يضايقك ؟ أقوم لك
بمهمة خلعه ؟ وتطفئين قدميك التعبتين في الماء ؟
لا عليك . إنها مهمة " محببة " إلى نفسي كذلك .
جميع المهام التي من هذا النوع إلى نفسي حبيبة .
إنها عندي كتعهد بستاني سواءً بسواء . وإذا ما
أضفت إليها أشعاري ، كانت هي كلّ ما أحب .

لا تعجبي . إن من الناس الكليلين بالجاه
والقصور والضأن . ولكنني أصارحك القول بأن
الجاه يرهق كتفي ، والضأن يثقل على معدتي ،
والقصور تخنقني . إني طائرٌ ما يعنيني إلا أن
أمرح في بساتين الحدود ، وأسكر من بنت غنب
الثغور .

لاني في نظرم قنوع ، ولكنني في الحق أشد
منهم طمعا . ذلك أنني تخيرت المطالب الثمين
وتخيدته لي هدفا . وإن طمعي هذا لسيبدو

فاتناً كلما ورقعت عيناى من الجمال على قنينة .
عندئذ لا تكفينى النظرة العابرة ، ولا القيلة
الخاطفة ، وما أقنع حتى ألقى بدلوى فى الخضم ،
وأستخرج السكنوز من أغوار اللبج ، ثم أنضدها
بأصابع فؤادى الماهرة ، وأخرجها للناس شعراً
عجيباً .

والآن ، أعطينى قدميك . نعم ، هكذا . شكراً
على هذه المنّة . ها هما ذان حذاءك فى يدي .
أما ترين أنهما يصلحان قاربين صغيرين ؟ انتظري .
وأنا أريك . وثقي أنهما سيسببحان فى الجدول
برشاقة . ماذا ؟ أترك الحذاءين ؟ كلا . اتركيهما
أنت . قلت لك لا تشبهي بهما هكذا . نعم ، لا شيء
يفوّت على مشاهدة ذلك المنظر الجميل . منظرهما
عائمين . ولكن اطمئني ، لقد عدلت عن التجربة .
ذلك أنى فطنت إلى أنهما خاليان من المجاذيف .
ولولا ذلك لما أمكن لأية قوة أن تنجيهما من

شقّ غمار العباب . وأحسب أن في حديقتي
ضفادعَ تجيد الجذف ، وتستطيع أن تصلَ بهما
إلى البرّ في أمان . والأسفاه ! لو كانت لهما مجاذيف !

على أي الأحوال لقد انفرجت الأزمة .
وخرجت منها غائمةً حذاميك . ما أبدعك حافية !
ها إذن وأغرقى قدميك في الماء . واحذري مزاح
القواقع فإنه ثقیل . ولا بأس من أن تدعيهما
تلقيان شباك حسنهما على السمك ، علمهما أن
تصيدا لنا قرموطاً متيماً ، أعيدُ لك منه عشاءٌ
شهيماً .

سمّني بهلواناً أو قرقرؤزاً ، فليس هذا بما
يغضبني في شيء . إنى لأحب القرقرؤزَ حبّاً جمّاً .
أو ما يروك صوته الذي يشبه الزمارة ؟ وعكّازته
العتيدة التي يقرع بها صالحة زميله ، فتسمع لها
من تحتها قعقعة رائعة ، تذكرنا بتلك التي

تُحَدِّثُهَا مَقْرَعَةً^١ العَرِيفَ عَلِيَّ رَعُوسَ تِلَامِيذِهِ
النَّجِيَاءَ ؟

وَالْمُهَمِّمَ ، هُوَ هَلْ مَا زِلْتِ عَلَى ظَمْتِكَ ؟ نَعَمْ ؟
وَمَا آخِرَةُ هَذِهِ النَّعَمِ ؟ لَمْ يَبْقَ أُمَامِي إِلَّا أَنْ
أُغْرِقَكَ بِرِمَّتِكَ . هِيَ وَتَأْهِبِي لِدَفْعَةٍ مِنْ سَاعِدِيَّ
الْقَوِيَّيْنِ . وَلَكِنْ ، أَنْتَظِرِي . هَلْ تَعْرِفِينَ الْعُومَ ؟
نَعَمْ ؟ إِذَنْ مَا فَائِدَةُ إِغْرَاقِكَ ؟ لَا . لِأَدْعِكَ مَكَانَكَ .

وَالْآنَ يَا آنَسَةَ ، لَيْسَ عِنْدِي لظَمْتِكَ عِلَاجٌ .
ابْجُئِي عَنْ طَيِّبٍ غَيْرِي . وَلَا تَوَاضِعِي إِذَا
مَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ أَطِبَاءَ جَهَنَّمَ ، لَا بَدَّ أَنْ يَكُونُوا
أَبْرَعُ مِنْ تَخَصَّصِ فِي عِلَاجِ الظَّمَا . نَعَمْ ، فَهَمُ
يَعِيشُونَ فِي مَكَانٍ مَا تَكْفُؤُ نِيرَانَهُ الْحَامِيَّةَ عَنْ
أَنْ تَبْعَثَ بِهِ إِلَى صُدُورٍ مِنْ فِيهِ .

هَا أَنْتِ ذِي تَنْظَرِينَ إِلَى حَانَقَةٍ ، وَبُودِكَ
لَوْ أَنْشَبْتَ أَظَافِرَكَ فِي عُنْقِي . مَا أَبْدَعُ حَنْقَكَ

هذا ! إنه كشوك الورد ، ولأمثله جميل .
ولكن وخز ، فلو خزه غيرت نفسينا أذاه . بل
وينفج عليه من أنفاسه ما يجعله برداً وسلاماً
على قلوبنا .

ولكن ما رأيك إذا كنت أفهم سرّ ظمئك
هذا وأتخايت ؟ وأنه لو أتيج لي أن أعالجه ،
لنجحت فيما قد يخفق فيه أطباء الجحيم ؟

نعم ، إن ظمأك من نوع ظمئ . وظمئ
لو تعلمين ليس يشفيه إلا جرعة من شراب
سحريّ يسمى بسلاف العذارى . وهو ينبع
هناك من عين تجرى في مواطن الفم ، فيك الجميل .

أواه يا عزيزتي ، وعلام الخجل ؟ ألك
أن تقولي لي لم تبدو الحقيقة أحياناً مخرجة ؟
ما أجهل وجهك حين يورثه الخجل ! وعينيك
عندما تضلان في تيهه ! مرّحسى للخجل هذا !

يتصبغ وجوه العذارى بالتيه والأرجوان !

هيا يا ساحرتي المعبودة . يا أجمل من
وقعت عليه عيناى على كثرة ما رأنا . هيا واروى
ظمئى . أسوةً بالزهور العطشة . تلك التى حظيت
بعطفك . أو أكون أقل حظاً منها ؟ إننى أنا
ملكها كما سبق أن قدّمت لك نفسى . هيا ، ولا
تؤثرى على عبيدى . هيا بربك . هيا اروبنى .
وثقى أنك أيضاً ستتروين . إننا أحياناً نشبع
عندما يشبع غيرنا . الغريزة عندئذ تسكتفى بالنظر .
أمّا ترين إلى العذول وقد أنحفن فى هواه ، كيف
يحلون له أن يشاهد عاشقين يتبادلان القبل فى
خميلة ، متسللاً إليهما بعينيه الجاثمتين من خلال
الورق ، ثم يمضى إلى منزله العاصم ، وهو يقسم
بينه وبين نفسه بأنه قد قبّل فى يومه المنصرم
حسناً ؟ هيا ولو أن فى التشبيه بعض الفارق .

أرويني ، وأنا كفيلٌ بأنك عندما تريثتي ارتوي
سيفطفاً ظمأك . هيا يا حبيبتي . ادني مني . ها
هما تان شفتاي تشبان لتقبيلك ، كالموج أدركه
المدُّ تحت شعاع القمر .

إياي أن أفعل ؟ وإلا غادرت البستان من
فورك ؟ حسناً ، وليّ الأدبار إن شئت . إن لي
يدين تعرفان كيف تشبشان بذيلك ، وتجتذبانك منه .

ماذا تقولين ؟ ستكونين في غضبك جادّة ؟
العفو ! إنك تكذبين عليّ يا « شيري » . وعلى
نفسك أيضاً . هذا لسانك قد مرّ على شفتيك
عفواً مندّياً جفافهما . تلك دلالة طيبة . إن
غريزتك غافلتك ، وسخّرتّه ليفسر أحلامها .
لقد كانت تحلم أن فماً ما بلّسهما ، لأنها كانت
تتوق إلى ذلك . لا تحاولي . هأنذا أرى تلك
الأحلام طافيةً على نغرك ، وأكاد أقرأ ما تقول .

وأراهنك على أنها تقول : قبّلى .

فى وسعى أن أتلقى منك لطمةً تهوِّشني بها
على الموقف ، رثيا أختطف القبلة التى أريد
وتريدني . ثم نعتدل فى موقفنا وكأنتى اغتصببتها
اغتصابا . إننى أفهم جيداً مكر الجميلات . إنه مكر
عذبٌ مثلهن . ولكننى أعرف كيف أردّه إليهن
بمكر أعذب . أعرف كيف أتركن يتظاهرن بما
يشأنّ وآخذ أنا ما أشاء . وبذلك أرضى الطرفين ،
هنّ وإياى .

نعم ، هكذا فلتتبسّمي . هكذا وإلا فلا .
على أى الأحوال فابتسامتك أعذب من تقطيعك ،
وإن كان كلاهما جيلا . بروحى ابتسامتك
هذى ! بروحى افتراك !

شكراً . تقولين كم أنا خبيث ؟ وخطر ؟
نعم ، أصبت . أو تحسبين أن تجاربي تذهب عبثاً ؟

فيما مضى كنتُ غيرًا كالطفل . أصدق ما تقول
الغيدُ فما يلبثن أن يغضبن مني . أمّا الآن فلقد
تعلمتُ أن أعذب القول أكذب به . وأنسكن
كاذباتٍ لأنسكن عذبات . وإنني لأجيب على كذبتكن
بكذبٍ أشدَّ أشرا ، لأعذر في عيونكن جديرا
بكذبكن الظريف ، فما تندمن إذا ما كذبتن يوماً
على ، آخذاتٍ على أتى فوّتت قصديكن عليكن ،
ولا تلعن حظاً عاثراً أو قمعكن في صحبة حبيبي
أبله ، لا يفهم لغة الكذب ولا يستعذب مذاقه ،
ويتطلب منكن الصدق على ثقل ظله على نلوبكن .

أرايتِ أني أفهمكن ؟ أو أدركتِ إذن قيمة
الرجل المجرب ؟ أو ما يفضل هو الأطفال
الغريبين ، الذين يتركونكن بظلمتكن ويهضون في
خبيّة مضحكة ؟

أظننا الآن تفاهمنا . هاتى ثغرك إذن . قاومى

ما شئت ولا تخافى ، فستُهزمين وعلى أحسن
ما تودين أن تُهزمى . لن يدركك النصر الذى
يُخَيِّب أملك .

هأنذا أخذتُ القبلة . القبلة التى ظلمتُ أمهد
لها دهرًا . ما أجملها ! حقاً إنها تستحق العناء .
تلمع على الشفاه كوض البرق ، وتختفى وقد
خَظفتُ معها لمحةً من الروح . لصةٌ وأى لصة !
تسرق المهبج العزيزة ، وبرضاء ذويها . وتزاول
السطو أبداً ويدها المشعل ، مشعلُ الشوق الذى
تضىء بلبه ، وكأنها لا تخشى الضياء . إن الخوف
ليس من دأبها ، ولا الظلام مما تأبه له . إنها اللص
الذى ما يلبث أن يفتح له العشاق الأبواب على
مصاريعها ويسألونه أن يدخل . إنها القبلة !

نعم ، إنها القبلة ، ولقد أخذتها . وليس
يضيرنى أن فقدتُ بسببها بضع قطراتٍ من دمى ،

على أثر خَمَشَاتِكَ أَيْتَمَ القَطْطَةُ البرِّيَّةُ . إن
رحيقك الذى يسيل الآن دافئاً فى عروقي ،
ليعروِّضننى عما فقدتُ دماً أزكى وأشدَّ حرارة .

ويحى ! أتضعين قُبعتك ورحيذامك ؟ أحان
الوقت لنقول الوداع إذن ؟ أمّا فى مُكْتَتِكَ
المزيد من المكث ؟ كذا ؟ ما باليدِ إذن حيلة .
إلى اللقاء يا حبيبتي . يا ساكنة فؤادى منذ اليوم
وإلى الأبد . برغم روحى أودّعك .

وداعاً وداعاً ! وداعاً على قلبى عزيزاً ! اذكرى
حالما تخرجين ، رجلاً يستعذب الكذب ،
ويجسارى من يكذب . يجاريهن فى بساطة فاتنة ،
ومن دون ما عناء . ولا تنسى بَعْدُ أن تحضرى
كل يوم .

لا تنكر الحبَّ لئلاَّ تَخْدَعَ نَفْسَكَ . إن
مصباحه لَمِخْتَلِجٌ في فؤادك ، فَأَلْهِبْ بِزَيْتِ الْجَمالِ
شِعْلَتَهُ ، وَعِشْ مَبْصِراً في نوره .

وزدّه يُضَيِّعُ عَلَيْكَ لُجْأً وَيَكْشِفُ السِّرَّ
دُونَكَ . وَعِنْدَئِذْ تَرى الْمِشْكَاةَ الْكُبْرَى وَقَدْ
تَأَلَّقَتْ وَرَاحَ يَبْهَرُ نُورُهَا بِصُرْكَ .

إنَّهَا لَسَيِّ السِّرُّ وفي مصباحك مِفْتَاحُهُ . وإنَّ
على بصيصه الخَافَتِ ، مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَبِينَ الطَّرِيقَ
لِتَحِيلِ . فَاذْرِهِ أَنْ تَطْفِئَهُ لئلاَّ تُفْلِقَ عَلَى نَفْسِكَ
وَتَمْحُو بِيدِكَ عَنَوَانَ وَجُودِكَ .

كُنْ كَسَائِرِ الْكَائِنَاتِ حَتَّى مَا كَانَ مِنْهَا لَا
يَعْقِلُ . وَانْظُرْ إِلَيْهَا وَتَعَلَّمْ . انْظُرْ تَرَكَّهَا جَمِيعاً
تَضَاءُ بِتِلْكَ الشَّعْلَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَتَكَفِّحْ مَاهِمَةً لَكُمْ
تَنْدَمِجُ فِي نُورِهَا الْأَزَلِيِّ .

كن ملهماً مثلها ، ولا تجعل من عقلك
نقمةً عليك . وإياك أن تتبعه وأن تطيع شكوكه .
وأعرض عنه إن هو أراك في فؤادك . إنه
هو الشيطان يضللك ، وأما روح الله ، ففي
القلب كامن . كامن في قلب كل مخلوق ، تلمحه
حقيقة السر ، وتقوده إليه من دون ما جهد .

تعلم عن الملهم الحكمة . واعلم أنه
لا يعيش فيهم عقل يضللهم . وأن الإلهام هذا
ليس بالأمر العيب ، لأنه مظهر ، ولكل مظهر
قوة من وارئه تدفعه . وأنه أبداً على صواب ،
لأنه ليس نتيجة لموازنة تحمل الخطأ ، وإنما
هو إرادة تسير . وإنما لإرادة مسير الكون .
وإرادة لا بد قد سبقها فمكر . فمكر من خلق
لك العقل ومنحه الحرية ليفكر . ولا تنس
أن من وهبك العقل وسمح لك بأن تزن به ،

أَقْدَرُ مِنْكَ حِينَ يَزِنُ هُوَ . وَأَنَّهُ حِينَ يَفْشُرُغُ مِنْ
 وَزْنِهِ وَيُرِيدُ ، يُلْهِمُ لِإِرَادَتِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ .
 وَأَنَّهُ سَبَّحَاتِهِ إِنَّمَا يُتَخَيَّرُهُمُ عَنْ يَصِيخُونَ لَوْحِي
 إِلْهَامِهِ . فَأَصْبَحُ إِذَنْ لِلَوْحِي . وَادُّنْ مِنْهُ يُقْبَلُ
 عَلَيْكَ . وَسَلِّهُ يَغْمُرُكَ . وَاسْفَاهُ لَكَ ! لَوْلَا
 عَقْلُكَ لَمَّا احْتَجَجْتَ إِلَى أَنْ تَبْذُلَ الْعَنَاءَ لِسُكِّي
 تَدْنُو ، وَلَا أَنْ تَسْأَلَ . وَلَكِنْ تَوَكَّلْ وَكَانَ وَحْدَةً
 مَا تَتَجَزَّأُ . يَا مَرْفُوسُ ، أَوْ يَا مَرْفُوقُ . وَفِي
 كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ تَطِيعُ مِنْ دُونِ مَا جَادِلُ . كَأَنَّكَ
 أَنْتَ الْإِلْهَامُ وَالْمُلْهِمُ مَعًا . وَلَكِنْ قُضِيَ الْأَمْرُ
 فَمَا لَكَ حِيلَةٌ . فَكَيْفَ إِذَنْ أَنْ عَقْلُكَ يَهْدِيكَ إِلَى
 الْإِخْذِ بِالْهَامِكِ . وَلَا تَدْعُهُ يَسْتَكْبِرُ عَلَيْهِ . وَمَرْهُ
 يَفْنَى فِيهِ ، وَيَكِلُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ .

نعم . خذْ مَا اسْتَطَعْتَ عَنْ الْمُلْهِمِينَ طَرِيقَ
 السَّيْرِ . وَلَكِنْ أَخْذُكَ عَنِ الْكَائِنَاتِ الْكَثِيرِ

إصاخةً للإلهام . خذُ عنها أن الحياة حب .
وأن غاية الحب اندماج . وأن في الاندماج
شرفاً ونعيماً مقيماً .

أفأ رأيتَ إلى الأغصان كيف تتعاطف ثم
تعتق ؟ وإلى الأطيّار كيف تتناجى بأعذب النغم
وأرقّه ؟ وإلى الزهر كيف يُذيع أشواقه في
عرْفِ زكى ، ويتوسل إلى النسيم كيما يحمله ؟

أفأ رأيتَ إلى البرق كيف يُلمب بقُبَلاته
وجَنّاتِ السحاب فتحمّر ؟ وإلى الجدول كيف
ينساب غافياً وكأنه من حبه في حلم ؟ وإلى القمر
كيف يفتّر ثغره عن ابتسامة الواله ، وترتسم
على عينه غمزة الغزل ؟ وإلى ورقة الغصن كيف
ترقرق عليها دمة الصب ؟ وإلى الموج كيف
يرقص وكأنه يخاصر غانية ؟ وإلى النجوم كيف
تقضى سهرها الطويل وهي دائبة الخفق ؟ وإلى

الصباح كيف يهنئك وكأنه قادمٌ من لقاء ؟
والليل كيف يقطِّب كما لو كان قد أضناه الحب
أو لوَّعه الفراق ؟

أفما رأيت إلى الورد كيف يتضرَّج خجلاً
من صبوته ؟ وإلى الأتحيوان كيف اصفرَّت من
الوجه وجنَّاته ؟ وإلى النرجس كيف سكَّرت
من خمر الهوى عيونه فبدت ناعسة ؟ والبنفسج
كيف فاضت عليه كآبة قلبه السكيم فاغتم ،
وأرغمته الهموم على أن يطرق برأسه ؟

كل شيء نابضٌ بالحب مستخَّرٌ له . ذلك أن
الله سبحانه قد زوَّدنا من جمال ذاته العلوية بما
أوقد فينا مشعل الحب الأزلي ، وأرادنا بهذا على
أن نسبِّح به في شخص ما سوى من جمال ،
وأن نعرِّفه تعالى عن طريق خلقه .

واهاً لي ! لقد بدأت تهبُّ عليّ من بساتين
 الفؤاد ، طلائع نسيمٍ حُبٍّ قديمٍ ، وينتهي إلى
 من خماؤها بصيصٍ من نور مصابيحها الخابي ،
 فما يلبث أن يعود بروحي إلى أحضان ماضٍ
 جميل ، لم أعرف الهناء الحق إلا فيه ، رغم
 ما اكتنف لياليه من سهادٍ ما أراه إلا كحل
 بالضي عينيّ ، وخضّله من دموعٍ ما أراها
 إلا زائته بلؤلئها النضيد .

وإن النور ليشته رويداً رويداً حتى لَمَّا
 تعود تقوى على التفتح في وهجه عيناي ، كأنما
 يدُ جنّيٍّ قد صَبَّت في مصابيحها من زيتٍ
 سحريٍّ رَدَّ على نورها ماضى أليقهِ . والنسيم
 ليزداد خفقته كلما أمعن في الشرى كأنما
 تنفّس فيه ربيعٌ جديد ، ويأتى إلى محملاً بالعطور
 والأشواق ، فما ألبث أن ارتعش تحت ملهه

ارتعاش أوراق الزهرة فقدت إرادتها أمامه .

ويح لك أيها الصب ! أي شعور ذلك الذي
راح يتخالج صدرك ؟ وأي شيطان لمسك
فأيقظ فيك الحب من جديد ؟ وأين كانت
أنوارُه هذه مخبئة ، ونسماتُه تلك ثاوية ؟

لا حيلة ، فلقد عاد يجمعك وإياها السحرُ
الذي قد كان جمعكما تحت الله . فيها وودَّعُ
من جديد أيام خُلُوك ، وذُرَّ عيشك الذي
مَجَّجَتْ في خدور من اتخذتْ منهن لك عشيقات ،
ثم ارجعْ أدراجك إلى من فتنتْ فؤادك من
قديم ، وانزلْ على حكم الزمان .

وعجِّلْ ، فأن بالقلب من حبيبها لنزقاً يجعله
نافذ الصبر . وليكن في هذه الليلة إلى قصرها
مشارك ، حيث تقف ببابه وقفة الأعم نديم
على ما اقترفتْ يدها ، ذليلاً خافض الرأس ،

حتى إذا ما مثّلت بين يدي من جئت تسأله
الصفح ، خرت على الأعتاب تغفّر وجهك ،
وأنت ما تكفّ عن أن ترفع بين الحين والحين
عينيك إلى السماء ، ريثما تسأل الكواكب
والزهور والأطيّار التي رأت حبكما وكانت عليه
خير شاهد ، أن تشفع لك عنده .

٣٣

عينا حاولت أن أسلوّك بفيرك — يا
زهرة بزّت بحسنها ليدانها الزهور ، ويا أول
من غنّى لها في الشوق طائر الفؤاد .

لقد كانت ساعةً أطلقت فيها جناحيّ من
أشر حبك ، وجوّبتُ الرياضَ رياضَ الحسن ،
عابثاً متنقلاً ، مغازلاً كل زهرةٍ مطارحاً الغرام
كل غصن ، عساني أن أنسى حبك الذي برّح
بي ، فما نسيتُ وعاءاً — ١١١ — أشوق بما كنت .

ويعلم الله كم كنتُ أترجم بالحرية وأنا من
هواك طليق ، وأحنُّ للقيد الذي قد كان به كبتاني
فعلاني حلاوة الأسر .

وعندئذ أيقنتُ أن للذل في الهوى مذاقاً
جَمِيلاً ، ولمتُ نفسي على أنني أردتُ أن أرفع
لي في الحب هامةً عهدتُها عند قدميك سعيدة .

ألا فودّعْ يا فؤادي رياضاً نرحتَ إليها في
لحظةٍ من لحظات عقوقك ، وطيرهُ إلى أيكك
القديم حيث تتربع على فرعها زهرةُ صباك ،
حسناء يكاد أن يكسف نورُها الشمس ، ذات
دلٍّ كأنها بين أترابها الزهور أميرة ، وغنٍّ
واسكبُ في مسامعها أناشيد هواك من جديد .

واغسلْ بدموع ندمك أوضار الأحزان التي
خلّفتها في فؤادها الكليم هجرُك . واجثُ عند
قدميها مستغفراً علّها أن تصفح عنك وتقبل

عَوْدَتِكَ .

فَإِذَا مَا رَقَّ لَكَ فُؤَادُهَا وَالْعَهْدُ فِيهِ يَرِقُّ ،
فَأَعِيدَا مَعاً عَهْدَ حَبِيبِكَا الْعَذْرَى ، وَلِيَالِي الضَّنَى
وَالسَّهَادَ الْمَاضِيَةَ ، تِلْكَ الَّتِي لَمْ تَعْرِفَا الْهَوَى الْحَقَّ
إِلَّا فِيهَا .

وَعَنَّا لَهَا كَلِمًا تَبَسَّمَتْ ثَغْرُهَا فِي وَجْهِهِ
الصَّبَاحِ ، أَوْ تَأَلَّقَ النَّدَى فَوْقَهَا فِي الْفَجْرِ الذَّهَبِيِّ .
حَتَّى إِذَا مَا تَرْنَحَتْ طَرِبًا مَعَ النَّسِيمِ عَلَى إِيْقَاعِ
نَغْمَاتِكَ ، فَتَرْنَحُ بِدَوْرِكَ وَاطْرَبُ كَمَا يَا طَالِمَا
قَدِيمًا طَرِبْتَ .

وَالنَّسْ إِلَى جَوَارِهَا أَيَّامَ الْيَتَمِ الَّتِي قَضَيْتَهَا
بَيْنَ الزَّهْرِ وَالْأُخْرَى ، شَرِيدًا مَوْزَعِ الْقَلْبِ ،
كُورَقَةِ الشَّجَرِ فِي مَهَبِ الرِّيحِ لَا مَهْبِطَ لَهَا
وَلَا مَسْتَقَرَّ .

تَبَّأْ لِي مِنْ جَارِحٍ بِالْخَدْرِ قَلْبَكَ ! — يَا
 زَهْرَةً تَسْرَبُّ الشَّحُوبُ إِلَيْهَا مِنْ بَعْدِ تَوَرُّدِ ،
 وَعَلَى عُنُقِهَا ذَلَالٌ تَمِيلُ مِنْ بَعْدِ تَيْهِ وَاعْتِزَازِ .

أُتْرِثْنِ وَإِنْ تَظَاهَرَتْ بِالْعَفْوِ سَاعَةً
 اسْتَغْفَفْتُكَ ، قَدْ أَبَتْ كِبْرِيَاؤُكَ الْجَرِيحَةَ أَنْ
 تَصْفَحَ ، وَأَنْكَ مَا سَمَحْتَ يَوْمَئِذٍ لِيَدِكَ بِأَنْ تَوْضِعَ
 فِي يَدِي ، إِلَّا رَعَايَةً لِحُبِّ قَدِيمٍ لَمْ يَزَلْ مُسْتَكِنًا
 بِالْفُؤَادِ ، وَعَلَى كَرِهِ مِنْكَ كَمَا يَقْرُبُ الْمَرِيضُ
 أَحْيَانًا طَعَامًا يَعَافُهُ ؟

حَقًّا إِنَّ جَرَحَكَ مَا هُوَ مَا يَنْدَمِلُ ، وَلَا ذَنْبِي
 عَمَّا يَقْبَلُ الصَّفْحَ . فَسَلَامٌ عَلَى أَيَّامِنَا إِذْكَ ،
 مَا التَقَى عَلَى الرِّيَاضِ مِنْ بَعْدِنَا عَشَاقٍ ، وَأَذَاعُوا
 مَعَ الزَّهْوَرِ أَشْوَاقَهُمْ عَطِيرَةً . سَلَامٌ مِنْ آثَمٍ
 دَفَنَهَا فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ عَقُوقِهِ ، ثُمَّ انْثَنَى عَلَيْهَا

يبكيها ويسألها المغفرة . وحين قرَّح البكاء عينيهِ
على غير طائل ، أدرك أنَّ عبثاً ما توقَّع لها أن
ترجع ، وأنه هيهات للدمع أن يغسل ما اقترفت
يداه .

والأسفى عليك تعيشين على رغم الشباب منطوية
على جرحك ! وكلما مرت الليالى عليه توغَّل
فى جسدك الرقيق فأبلاه .

تُرى ماذا هو فاعلٌ بك غداً ، ذلك الجرح
التيخين ؟ وهل يؤمِّل الصبُّ فى أن يعود إليك
ماضى ازدهارك ، أم أن عودك قد اصفرَّ
واكبدى إلى الأبد ، وأنت عما قليلِ ذاوية ؟

٣٥

حبيبتي ! أميَّةٌ أنت ؟ أتلك التى ترفرف
على رأسك الجميل سكينَةُ الموت ؟ وذلك الذى

يَغْمُضُ الْآنَ أَجْفَانَكَ كَرَاهٍ ؟

لَا وَاللَّهِ مَا هَذَا الشَّحُوبُ لُورْدُ خَدِّكَ !
وَلَا ذَلِكَ الْغَمَضُ لِسَاحِرِ جَفْنِكَ !

إِىِ وَاللَّهِ لَمْ يَحْنُ بَعْدُ الْوَقْتُ ! لَمْ يَحْنُ
بَعْدُ وَكُلُّ هَذَا الشَّبَابِ فِيكَ ! لَمْ يَحْنُ وَكُلُّ
هَذَا الْجَمَالِ عَلَى جَسَدِكَ يَبْسَمُ !

أَمْوَدَّتْنِي بِالْبَيْتِ الطَّوِيلِ ، الْغَيْرِ مَا أَوْبَقِ
تَرْحَلِينَ فَمَا وَإِنْ طَالَ بِنَا الْإِنْتَظَارَ عَدْنَا نَلْتَقِ ؟
وَأَفْتَرَقْنَا فَلَا الْعَيْنَانِ اللَّتَانِ كَمْ كُنْتَ بِحَسْنِكَ كَحَاتِمِهِمَا
عَادَتَا تَرِيَانِكَ ، وَلَا الْأُذُنِ الَّتِي يَا طَالِمَا عَشَقْتُ
صَوْتِكَ الرَّخِيمِ عَادَتْ تَسْمَعُكَ ؟ وَعَفَى عَلَى حُبِّنَا
الزَّمَانُ ، فَلَا الرَّبَى عَادَتْ تَشْهَدُ مَقْدَمَنَا ، وَلَا
شَجَرُهَا الظِّلِيلُ عَادَ عَلَيْنَا يُفِيءُ ؟

آه ، يَا لَيْتَكَ كُنْتَ فِي رِكَابِكَ أَخَذْتَنِي ، أَوْ
أَنْتَ وَقَدْ انْتَنَى يُسَيِّبُ بِكَ الْفَوَادُ عَدَتْ لِهَبِّكَ ؟

ولكن هيهات ! وهل كان في وسعك أن تفعل ؟
فتأخذني الصبّ المشتاق ، أو عن رحيلك تعذلي ؟

لِمَنْ تركتني ؟ لِمَنْ برك ؟ وأى خير
في الحياة لي بَعْدك ؟ أجيبي ! أجيبي موجهك !
أم أن تلك الكأس التي سقيتها قد أخرجتكَ
إلى الأبد ؟

لَمْ لا تجيبين ؟ أَلستِ معنا ؟ أو ليس هذا
الوجه وجهك ؟ وذلك الفم ذو النغم الجميل
فك ؟ إذن ماذا الذي أسكتك ؟ وما ليصرخاتى
تموت على أذنيك فما تبلاغهما ؟ وعينيك ترمقانى
من خلال أجفانك المسجّاة وكأنهما ما ترياننى ؟
ما لك ؟ ما لك بيننا وكأنك لست هنا ؟ أين
أنت الآن ؟ وأى سفرٍ طويلٍ ذلك الذى راح
بغيبك ؟ وفي أية مرحلةٍ لعمرى أنت الآن منه ؟
تُرى بلغتِ فى مسيرك السحُب ؟ أم إلى الرفيق

إننى لك يا حبيبتى ، وبعينيك على ذلك أقسم .
لك ، رددتِ على حياتى أم أهدرتِها . توجّجتِ
بالوصل جبين أيامى ، أم تركتها بالهجر يتيمة .
وإنى لأنكر أياماً لست فيها ، وأعيش ما
غاب عن أفقى وجهك عالةً على أيامنا الماضية .
أعود إليها بروحى كلما انبثق فجرٌ يومٍ جديد ،
وأقف ببابها وقفة السائل تقطّر الذلة من جبينه
وعليه من الثياب أطماره بالية ، أستجديها
خُلّساً من نعيم زائل حبتنى به يوم أقبأت
مضيئةً على حياتى ، فلما أن مضت أخذته معها
فى رِكَابها وتركتنى وحدى أشتكى اليتيم .

وبعد أن أمضى سحابة يومى أمدُّ بالسؤال
بدأً وأقبض أخرى ، أعود وقد برّح بى الضنى
خالى الوفاض ، اللهم إلا من كسرة من شبح
الذكريات قدّدت ، تُلقى بها إلى من عقب
الباب ، أتبلغ بها إلى حينٍ وأستعين على

مواصلة القليل من أيامى الباقية .

٣٨

تالله أفتأ يا حبيبتي أذكرك ، يومَ التقينا على
الأصيل والروضُ يجمعنا نخيلهُ . ولبتنا تتطارح
الهوى ناعمين إلى أن سَخِرَ القضاءُ ونَقَسَتْ
ضفدعة ، فانتبهنا وإذا العذول من بُعدٍ يلُوح
وقد عفرت ريحهُ الأرضَ وبعثَ خطاهُ قرقة .

وعذولى ثقیله كثيرُ الفضول وإن لم يزد فى
قومه عن إمعة . فانطلقنا ركضاً من فورنا
عسانا أن نهتدى إلى مخبأ آمنٍ ما يشوب المُقام
فيه رقيبٌ أو تعكر الجوى فيه منه زوبعة .

وواتنا الحظوظ إذ غرد بلبلٌ فهدانا إلى
أجمةٍ من خيزرانٍ كان قد أقام فوق عروشها
وَكْرهُ . معتمةٍ حَجَبَتْ أعوادُها وقد تكاثفتْ

عن قلبها الضوء ، مَنْ يراها يرى الليلَ من شدة
الظلمة ، أو الضبابَ تجمعتْ أشتاتُه .

وولجناها دغلاً آمناً ، ما تحوم من حوله
شبهاتٌ ، لا ولا ترقى إليه ريب . واعتنقنا
فأذا الظلامُ تُوارينا على رغم النهار سدوله .
وحناناً من لدنّه ما راح يهزُّ علينا من عبق ،
إنّ هو إلا مما تنفّس الزهرُ فيه ووعاه مثلاً
وعت الثيابُ الذّكر .

ولقد ظلمنا برهةً وكأنا السكارى من
نشقنا النّفح لعبت برأسهم النشوة فمالوا
وترنحوا . وكنا كلما التقت على الظلمة شفطانا ،
تضوّع البخورُ كشيئاً من سحوفها العنبرية ، كأنما
لمسته من قُبُلنا نارُه فهبَّ مدعوراً وقد حلّقت
في الجو أشلاؤه ، ثم انثنت كراماً تضمّخ جبينينا
التهيين . على حين يفد النحلُ وقد هدّاه العبق ،

فيطوف بنا في دوراتٍ رتيبة ، وهو يُسمعنا من
أزيزه الواحد القرار ما يشبه ترتيلَ راهب .

وهكذا باركنا الظلامُ ظلامُ الدغل ،
واحتوانا منه شبهُ معبدٍ كأن من أسود
المِسك حيكتهُ أستارُهُ . تُضام علينا فيه من
شموعٍ من بُرحاء الشوق تتوقد ، ويُضممنا
كلما حلَّ برأسينا التعَبُ بخورٍ من زهور ما
أراها إلا بالمحبين حريّة . قسّيسُهُ النحلُ يترُّ
علينا بما يشبه الترتيلَ ، ونحن منه العروسان
يكللنا ويتلو من حول رأسينا الرُّقى . والقلبُ
مِجْمَرُهُ ، والحبُّ مذبحُهُ ، والضحايا الأشواقُ
ما تُراق عليه إلا زكية .

وما راعنا إلا أن يضياء علينا من أشواقنا
جفأةً ، فيراننا من مرّ بضمّ العذولُ ويأتينا بحرجر
نحسّه . غير أننا كنا كلما التمعتُ بهريق الوجد

أعيننا فكادت أن تهتك حُجُبَ الظلام ، عاجلنا
الحمامُ بأغانيه النعاسية ، تلك التي سَفِظَها عن
العشاق من منذ القدم ، ورواها من بعدهم لكل
صبٍّ مستهام ، فما إن تمرَّ على أجفاننا مرَّ
الوسن ، حتى تتراخى لها أهدابنا وتحملنا على
أجنحتها الأحلامُ إلى مخبأٍ في الفردوس سحري ،
حيث تمضي نبادل القبل غير مسموعة ، ونهتك
الظلماتِ بيسناتٍ تبعث النور غير منظور .

حتى ما إذا انتبهنا على صوت شاذٍ جديد ،
من بلبلٍ على غصنه شاردٍ ، أو كروانٍ يحوِّب
الآفاقَ شريد ، نهضنا ننفض عن أعيننا غبر
الوسن ، ونجتمع ما شئت الأحلامُ من لبنا .
والتفتنا فإذا الدغلُ على عهده عاطفٌ ، وإذا
العطور من جنباته تتضوِّع .

آه يا حبيبتي ، تالله أفتاً أذكُر ! ولكنَّ

الحياة نسيان .

نعم اذكر . ولكن أنت ، أتذكرين ؟
أتذكرين وعيناك في التراب مغمضتان ، ورأسك
الجميل غائب رهين البلى ؟

إني أذكر . ولكن هل يذكّر الدغل ؟
هل يذكر الحمام أنه غنّانا ، والنحل أنه أزرّ
علينا وراح يتلو حوالينا الرقي ؟

وهل تذكر الرياض أننا يوماً ما جئناها ؟
أو الخائل أننا اعتنقنا بينها ؟

وهل يذكّر العشب أننا توسدناه ؟ والطرقات
أننا وطئناها ؟ ثم هل تذكر هذه خطواتك
الموقّعة ؟ أو ذاك تقالبات قدك اللدن ؟

وهل يذكر الغدير أنباء جسدك الناعم ، الذي
طالما سبّح فيه وغاص ؟ والبحيرة ؟ — تلك
التي طالما أطفأت في مائها قدميك كلما ألهبهما

التعب ، أتروى شئاً عنهما ؟

ثم هل يذكر الورد ؟ هل يذكر حمرة
خديك ؟ أو الياسمينُ نضوعَ جبينك ؟

وهل يذكر النرجسُ عينيكَ الناعستين ؟
أو الغصنُ قدَّكَ الممشوق ؟ أو الموج صدرك
الناهد ؟ أو النسيم أنفاسك العطيرة ؟

ثم هل يذكر الندى دموعك ؟ أو الصبح
بسمتك ؟

كلا ، لا شئَ يذكر . نعم ، لا شئَ يذكر .
لقد طوتك الأيام وطوت معك حديثك . ونسيتك
الحياة التي وعثك يوماً وتوَّجتْ جبينها بجمالك ؟

ولقد فرغتْ منك الرياضُ لتذكر غيرك .
والزهورُ التي كانت تهشُّ لطلعتك ، قد وجَّدت
شمسها في سواك .

لا شئَ الآن عاد يسبح بك أو يذكرُك .

الكلُّ نَسِي . ولم يبقَ سِوَايَ يَذْكُر . وعِسا
قَلِيلٌ سَوْفَ أَنْسَى ، حِينَ أَصْبَحَ أَنَا نَفْسِي فِي
ذِمَّةِ النِّسيَان .

فَالْعَفَاءَ عَلَيْنَا إِذَنْ ، وَالْبَقَاءَ لغيرِنَا وَالْحُب .

٣٩

يَا بَنَاتِ الْوَادِي خَبِّئْنَ عَيُونَكُمْ السُّودَ عَنِّي .
لَقَدْ ذَكَرْتُهُنَّ بِغَادَةِ الضَّوْاحِي رَبَّةِ الْعَيْنِينَ
السُّودَاوِينَ وَالْجُفُونِ الْكَحِيلَةِ . تِلْكَ السَّمَرَاءُ ذَاتِ
الشَّعْرِ الْفَاحِمِ الْمَنْفُوشِ ، وَالسَّاقِينَ اللَّتَيْنِ مِنْ
الشَّكَلَاتِ صُبَّتَا . جَمَعْتُ فِي جَسَدِهَا ظِلْمَةَ
الَّيْلِ عَلَى لَهَبِ مَصَابِيحِهِ . مَنْ رَأَاهَا يَرَى الظَّلَامَ
الْبَرَبْرَى ، وَعَلَيْهِهِ مِنَ الْهَمَجِ جَوَارٍ يَوْقَدُنْ
الْحَطَبَ . فِي أَحْشَائِهِ جَهَنَّمُ يَحْزُ ، وَعَلَى الصَّدْرِ
لَهيبٌ وَشَرَرٌ . وَإِنَّمَا يَتَقَلَّبُ اللَّهَبُ فِيهِ يَزْجِي

حوله الأضواءَ دموية . يَلْفَحُ إذ تَتَذَنَّبُ حُرُّهَا
الوجوهَ ، ويعود بالقلب إلى مَواطنه الخفية .
حيث الشهواتُ ليست إلا نيراناً تَأَجَّجُ في
كهوف النفس المظلمة .

رأيتها ذات يومٍ تخطر بين المروج في رهطٍ
من العذارى لداتها ، والخصى تحت خطواتها
الموقَّعة يرقص . يكاد كلما نَقَلْتُ ساقاً أن يشبَّ
ليثهما ، أو دَقَّتْ بِقدمٍ عليه أن يُوَطَّئَ خده .
وأنيَّ تسيرُ ترمي اللحاظَ ذاتَ الشمال وذات
اليمين ، الله للقلوب من سحرها !

وأصابني سهمٌ من جفنها نفَذَ إلى القلب
الذي أنشأ يترنحُ ، وفي حُبِّه استقرَّ . فتوجَّعتُ
قائلاً قلباهُ ، وتابعتُ سيرى في خطى تتعثر .

وتريثتُ حتى تفرقت العذارى ، فتبعثتُ عن
كشبِ سمرائي ، أرقب واللَّبُّ مني شريد ، ساقيهما

الملتئتين وهما تتنقضان ، وتخصرها النحيل وقد
راح ينثني كالغصن وأجمل .

وبدا لي أن أجرب حظي ، فضاغتُ الخطا ،
وواجهتُها ، وقبل أن تنبه للأمر كنت قد
ركعتُ عند قدميها هاتفاً : مولائي !

وصعدتني بنظرةٍ ساجيةٍ ، وتساءلتُ في
نفسه : مَنْ ؟ قلتُ قتيلاً جاء يطلب المزيد
من الموت ، فضحكتُ ساخرةً مني .

قلتُ أمّا ترقين لحالي ؟ أما تعبريني واحداً
من أولئك المحظوظين عبيدك ؟ ترمين إليهم بنظراتك
التيّاهة من علٍ ، فيتلقفونها في لهفٍ مثلياً
يتلقف الرشاش النبت الضامى ؟ خذيني ولو
بستانياً عندك . أفرش لك طريقك بالرياحين ،
وأجفف الندى من على مقعدك كلما راقك أن
تجلسي . وأجمع إمّا قدمت لك الزهور وأنسقها

طاقاتٍ تتاهين بها في وقت فراغك . وأقطف لك
الفاكهة الناضجة وآتيك بها في سلالٍ من سَهَفِ
النخل أصنعها بيدي . وأجني لك الشهد من خلايا
النحل غير مكثرتٍ لأبره ، وأقدمه إليك يترجرج
على ورق الموز . وأمسح بأوراق الورد حذاءك
الصغير كلما عفره التراب من طول السير .
وأغسل بالماء المعطر يديك البضتين كلما بدا لك
أن تغرسي بنفسك زهرةً فتلوثتا . وأضمّد ببذور
الحناء ساقك إذا ما عثرتِ وأنت تعدين في أثر
الفرّاش فانخدشت . ثم أسير وراءك وأنت
مارّة تستعرضين زهورك ، في انتظار أوامرك
لكي ألبها وأشكرك .

وانتصبتُ واقفاً أنتظر الجوابَ ، وافترّ عن
بِسْمَةِ ساحرةٍ تغرّها ، ولم تجب ، وواصلت
السير تاركةً إياي لا ألوئ على شيء .

وبلغتُ قصرها المنيفَ ، ودلّفتُ من باب

بستانه الخشبى . وكما تغيب الظبية النّفورُ فى
حرشها ، غابت بين الأشجار الباسقة .

وأبت قدماى يومئذ أن ترجعا ، فربضتُ
عند السياج مفترشا الأديم ، توارينى عن العيون
لبلاية قد استطالت دواليها . وجعلتُ أنشق
وأنا فى مكنى ، أنفاسَ فاتتتى مختلطةً بمبقِ الزهر .
وأقبل الليلُ مرغياً على المشرّدين سدوله ،
وساد الضاحية ظلامٌ اللهم إلا بصيصاً من أنوار
المصابيح ضئيلًا ، على أطرافٍ من أشعة القمر
باهتة .

فغادرتُ مطمئناً مخبئى ، وأخذتُ أطوف
بالتجسس مدققاً النظر فى شُرُفاته ، علّنى أن
أحظى منها بطيفٍ سائحٍ ، أو يطرق أذنًى من
صوتها الخنون رشّاش .

وحالفنى الحظُّ إذ لمحتُ على الشرفة الكبرى

ظلمها ، وانتهى صوتها إلى وهي تأمر في
الخدم وتنهى .

وإذ جنَّ الليلُ وأوصدتْ نوافذُ القصر
فأيقنتُ أنها للنوم آوت ، ثم بدأتْ طلائعُ
العسس جولاتها على الطرقات التي خلَّت وقتئذٍ
من المتسكعين إلا مني ، آثرتُ ألا أُصيخ أكثر
مما أصحْتُ لوسوسة الشيطانِ ، وأن أعود إلى
المدينة أدرأجى وأبادر .

ولقد شقَّ عليَّ أن أقنع من الغنيمة
بالإيابِ ، فمددت من بين قضبان السياج يداً ،
وسرقتُ أصيصاً تنبت فيه قرنفلة . وقلتُ ،
ذا شيء من رائحتها ، فليكن تذكاري مغامرة
الليلة .

ورأيتُ أن أطفئ لمحةً من ظمئي ، فقَبَلْتُ
ما خلَّته تخلف من تراب قدميها على عتبة الباب

ومضيت . ووهماً كان ذلك الذى خدعت به
نفسى يومئذ ، وكذباً يعلم الله أىّ كذب ! فما
التراب كان لقدميها خالصاً ، ولا لثمنه إن أتيح
بالذى يشفى الظمأ . ولكنّ الهوى مثل الجنون
فنون ، وللعاشقين فيه على شتى المذاهب
أحوالٌ عجب .

وحمل إلىّ النسيم وأنا فى القطار ما خلته
أنفاسها آتيةً من أضقاع بعيدة ، ثم أخذت
تنساب رقيقةً إلى صدرى كأنها نسيمات من
الفردوس هابطة .

وكنتُ كلما أطلتُ من النافذة خيّل لي
أننى أرى طيفها يتعقبنى بسحره عادياً فوق الحقول ،
طاوياً المسافات طيَّ الشَّحْب ، فيُسَرِّسى عني
وما ألبث أن أونس بالتطلع إليه وحدثني .

وكأىٍّ من مرةٍ تحسستُ والقطارُ ينهب بي

الأرض ، موضع الطعنة طعنة حبها من قلبي ،
فما إن أجدُها حتى أحمد الله وعلى عنابي أطمئن .
لقد كنتُ أطمع وقد فرقتُ بيننا الديارُ في
أن أراها وقد سكنتُ فؤادي على الأقل .

وقضيتُ ليلتي حليف السهاد ، وإذ انبثق
الصباح قصدتُ إلى ضاحيتها مبكراً لكيما أكون
في ركبها الفاخر عندما تخرج .

وأقبلتُ تهادي في مشيتها ، ووراءها من
المعجبين فصائلٌ وفلول . فلم تلبث أن اجتاحت
فؤادي عاصفةٌ من غيرةٍ حمقاء ، ورأيتُني أتهاوى
على نفسي كهشيمٍ يحترق .

وانتحيتُ بنفسى جانباً وقد اعتمدتُ رأسي
المثقل في راحتي ، وجعلتُ أنقل النظر بين
آسرتي وعبيدها ، وفؤادي من وجفٍ يذوب على
مصيره .

وجاء القطار فرمتنا جميعاً بنظرةٍ قاتلةٍ
صرعتنا من جديدٍ ، ثم مشيت على جثتنا واستقلته
إلى المدينة .

وتركتنا مثلنا مثلُ الجرحى في ميدان حربٍ
ينظر العدوُّ منهم إلى عدوِّه وهو يتناسى الأحقاد
ويَعْطَفُ . لقد كان جمعنا الشقاءُ على مِرْجَلٍ
واحدٍ ، فوفرنا على أنفسنا متاعب البغضاءِ ،
واكتفينَا بالنار تدحر للغريم منا غريمه .

وثابتُ على الانتظام في موكبها شهراً كاملاً ،
فما زادتني الأيامُ إلا لوعةً ، ولا الليالي إلا
بعداً عن الأمل الذي لإليه صبوت .

فأقسمتُ لأحرَّ منَّ على نفسي طريقها أبدَ
الآبدى ، وبررتُ بقسمي نصف عامٍ ذقتُ فيه
الأهوالَ من ألم البعد .

وساقتها إلى الأقدارُ مرةً في طريق ، فما

رفعتُ إليها خشيةَ اشتعال الوجد عيناً وإن أكن
لم أنجُ من طيفها يزيع الرماد عن جمرٍ بالقلب لم
يزل يتوقد .

وأويت لدارى محوم الفؤادِ ، ولم أكن أعلم
أن إغضائي قد مَسَّ بالمشعل من قلبها الذبالة .
ووافتنى ضحىً في حـديقتي ، وكانت قد
علمتُ بأمرى ، وأتتها عن بُعدٍ شهرتي الأنباء .
ورأيتها وأنا مكبٌ أقضَّبُ بالمنجل حشائش
بستاني ، تخففتُ إليها فاتحاً قلباً للقائها وذراعين .
ومضت تستميحني عن سابق صدِّها عذراً ،
فغفرتُ لها من إساءتها ما تقدَّم ، وشكوتُ
وشككتُ ، وبكينا يومئذ معا .

ولبثنا عاماً وبعض عامٍ كحمامتين جمعتهما
أوْثَقُ الألفة فوق أنضر الأيك . نظير إذا ما
انبلاج الصباح إلى الرياضِ ، وإذا ما الليل أقبل

عدنا كلَّه إلى عشه .

ولسكم غنينا معاً فوق الغصون فُخِّدَرْنَا مع
الظل الحزين بهديلنا الشاكي ! ولسكم حوَّنا معاً
فوق الحقول والتقطننا من سنابل القمح الحبيب
الذهب ! ولسكم ، ولسكم ، فوق الجداول حلقنا
وصفقنا في مائها بالجناحين !

ثم كان ما كان وعادت الجميلة تحنُّ
للصوَّجان ، وطالعتها من أعواد وكُنَّتنا المتواضعة
عرشها القديم بأبهته وجلاله . فاعتزمت في
نفسها أمراً ، وراحت تزورُ منى فازوررت .

عبثاً يحاول الجمال الفدُّ أن يقنع من متيِّميه
بواحد . أو ما تراه لم يُخلق فذّاً إلا كي
يسُود ويحكم ؟ كلُّ حسناء في حياها ملائكة
ولها من المعجبين رعية . والملائكة إذ تحكم لا تحكم
عبداً واحداً ، وإنما شعباً ما تُحصي عبيده .

وهكذا عادت ربةُ التاج على عرشها تتربع ،
غير أنى لرعيتهما هذه المرة لم أنتسب . لقد
ساءلتُ نفسي لم لا أحكمُ مثلها ، وتكون لي
من لداتها الجميلات رعية ؟ إن تكن حَكَمَتَ
بسلطان الجمال فلم لا أحكم بجبروت الرجل ؟
وكان أن حَكَمْتُ ، وكان أن كانت لي في
يومٍ من الأيام دولة .

وهكذا فرَّقْتُ بيننا سورةَ المُلْكِ ، غير
أننا لبنا لِمَاماً نلتقى ، وكما يلتقى ملكٌ وملكة .
تَجَمَّعنا مناسباتُ التاج ما بين حينٍ وحينٍ ،
فيؤدى كل واحدٍ منا المراسمَ لزميله ، وفي قلبه
من جهته احترامٌ ، وفي نفسه منه خشية .

والتسنا كلُّ لصاحبه العذرَ اعترافاً بما لصولة
المُلْك من سحرٍ ما يقاوم . إلى أن غدر الزمانُ
والزمنُ حُوسِلَ ، فاندكَّ عرشي وتقوَّض عرشها ،

وانزوت وانزويت كل في عقر داره .

يا ربة العينين السوداوين كالليل ، والجفون
الكحيلة — سلام من فؤادي عاطف ، علم الله
ما أقرأتك إياه ولكن زمانك . لقد ذهب عنك
السحر الذي كنت أحببت ، وزاياتني البشاشة
التي قد كانت شغفتك بي حبا . فما أنا اليوم
بمحب ولا أنت عدت بعاشقة . ولكنني لا
ريب أذكر وتذكرين أن حبًا ما قد كان ربط
قلبي في الأيام الخالية .

سلام على هذا الهوى إذن ما هبت عليه
من خمائل الأمس البعيد نسمة ، أو طرقت
مسمعيه من صدى طيره المردد همسة .

وانتن يا بنات الوادي يا ذوات العيون
السود وعليها من السحر بريق وهج ، أما
سجبتن عني أجفانكن الكحيلة ، لئلا تذكرتن

بأيامى الخوالى تلك ، وتستدررن من مآقى الدموع
الهاججة ؟

•

قَرَّ عَيْنًا فى قبرك يا « سعيد » . ها هو ذا
« حلمى » يوافيك ويرقد إلى جوارك . « حلمى »
شقيقك . يا من كنتما لى شقيقين !

أَجَل ، ها هو ذا ولما ينقضى على افتراقكما
عام . كأنَّ بُعدك شفَّهْ نَفْسَ إِيَّكَ . أو
كأنك دعوته من القبر فلبَّاك .

جدِّدا الأشواق إذن ، إن كنتما ما تزالان
تعرفان الشوق . ودعائى وحيدى الذى أشتاق
على البعد وأتعذب .

ها أنتما ذان متجاوران ، ليس بينكما غير
قبضة يد . ها أنتما ذان وكما ستظلان إلى الأبد .

زال الفراق الذى كنتما تشكوان ، وما أنتما
بَعْدُ بَشْتَيْتَيْنِ .

وما مِن سفرٍ عدتما تخشيان وإن أعقبته
أوبة . أو تفرّق فى مناكب الأرض وإن يكن
لِلقاء . ذلك كأن حين كنتما فى الدنيا . وأما
الآن ، فأنتما حيث أنتما باقيان . متجاوران ما
بينكما غير قبضة يد .

دارَ الفلكِ أم وقف ، كرّت الدهور
أم لم تكررْ ، أنتما متجاوران ، كل ما بينكما
قبضة يد . قبضة يد ما تزيد وما تنقص .

ودارَ الفلكِ أم وقف ، كرّت الدهور
أم لم تكررْ ، أنتما هامدان ، ما يمكن أن تختلج
فيكما خالجة ، أو تُسمع لهما فى كراهما
العميق نبرة .

ألا فاضطجعا إذن ، واشكرا إن كان

ثُمَّةً لِلشَّكْرِ مَحَلٌ ، قَبِيراً فِي الْفَلَاقَةِ جَمْعُكُمَا عَلَى
لِقَائِ أَبَدِيٍّ ، وَمَمَدٍ لَكُمَا وَعَلَى مَرِّ الْحِقَبِ
سَبِيلِ الصَّفَاءِ .

أَجَلٌ ، لَا خَوْفَ عَلَيْكُمَا الْيَوْمَ مِنْ فِرَاقٍ
أَوْ جَدَلٍ . فَأُمًّا عَنْ أَوَّلِهِمَا فَالْمَوْتِ ثَاوُونَ
بِلا حَرَائِكٍ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ . وَأُمًّا عَنْ الثَّانِي
فَمَا مِنْ سَبَبٍ لِلْخُتُوفِ عَادٍ . كُلُّ مَا حَوْلَكُمَا
فِرَاقٌ فِي فِرَاقٍ . وَمَا يَطْمَعُ الرَّاقِدُ مِنْكُمَا ، إِلَّا
فِي حَفْنَةٍ مِنَ الثَّرَى تَضُمُّ رَفَاتَهُ .

نَامَا إِذَنْ كُلُّهُ فِي حَفْرَتِهِ ، وَالظَّلَامُ بَيْنَكُمَا
مَشَاعٍ . نَامَا ، لَكُمْ لَعَلَى وَئَامٍ . وَئَامٌ مَا
تَنْفَكَّانِ تَعْبِرَانِ عَنْهُ بِصَمْتِكُمَا الْأَبَدِيِّ . نَامَا ،
وَذَلِكَ الصَّمْتُ عَلَيْكُمَا خَيْرٌ شَاهِدٍ . إِي وَاللَّهِ
الصَّمْتُ ! وَهَلْ مِنْ حَدِيثٍ سِوَاهُ بَيْنَكُمَا يَدُورُ ؟
آهٍ عَلَى الْأَيَّامِ الَّتِي كُنْتُمَا فِيهَا تَتَنَازَعَانِ ! ذَلِكَ

النزاعَ الأخويَّ وما كان أرفقَه ! يشبُّ من
الأمس على أهونه ، ثم ينقضى وما يمسُّ صميم
ودكما في شيء . كأنه فقاعة تتلاشى فما تترك من
أثر . أو سحابة صيفٍ إن لاحت لم تعكس
الجو ، ثم تمضى من دون أن تطيل اللبث .

ألا ليت هذه الأيام تعود ، وتعودان للعنيا ،
وتعودان تختلفان ! نعم ، ليتكما وما تهمدان هذا
الهمود ! ليتكما وما تصمتان هذا الصمت ! ليتكما
وتعود تنازعكما شئون الحياة ، فما تتخليان عنها
كما تخليتما .

ولكنكما والأسفا آثرتما أن تنفضا اليدين من
كل شيء . وتوسلتما إلى ذلك بسباتٍ عميق . كأنكما
تنشدان السلام في نسيه ، والجوار الدائم في
مشواه .

اطمئنا ، كان لكما ما أردتماه . لقاء أبديٍّ

إِنْ صَحَّ فِيهِ أَنْ يُقَالَ لِقَاءٌ . وَوِثَامٌ إِنْ صَحَّ
فِيهِ أَنْ يُقَالَ وَثَامٌ .

٤٩

عَجَبِي يَا « سَعِيد » ، عِنْدَمَا نَزَلْتُ إِلَى قَبْرِكَ
لَأَسْتَوْدِعَكَ ضَعْفَكَ الْجَدِيدَ شَقِيقَكَ ، أَنْ أُرَاكَ
مِثْلَمَا كُنْتُ تَرَكْتُكَ مِنْذُ عَامٍ ، وَمَا يَزَالُ ثَوْبُكَ
الْحَرِيرِيُّ فَوْقَكَ يَلْتَمِعُ ، وَمِنْ تَحْتِهِ قَوَامُكَ الْمَدِيدُ
حَافِظُهُ سَمْتُهُ .

آهٍ عَلَى هَذَا الثَّوْبِ الْحَرِيرِ ، الَّذِي كَانَ مِنْ
حَفْطِ الْحَيَاةِ كُلِّ نَضِيبِكَ ! لَهْفِي عَلَيْكَ لَقَدْ كُنْتُ
تَتَأَهَّبُ لَزَفَافٍ وَشِيكَ ، أَفَتُشْرِي إِذَنْ هَذَا ثَوْبَ
عَرَسِكَ ، وَذَلِكَ التَّرَابَ عَرُوسِكَ ؟ أَوَلِهَذَا
الْبَسُوكَ الثَّوْبَ حَرِيرِيًّا ؟ لَكِنَّا يَزْفُوكُ بِهِ إِلَى
حَفْنَةٍ مِنْ تَرَابٍ ؟

تَبَّأَ لِلْحَيَاةِ الَّتِي مَوَّهَتْ عَلَيْكَ أَمَلَك !
وَزَيَّفَتْ الثَّوْبَ عَلَيْكَ ! ثُمَّ أَعْطَتْكَ إِيَّاهُ فَلَبِستَهُ
وَأَنْتَ بِاسْمٍ بِسْمَةِ الْيَتِيمِ لِحَقِّ بِهِ الضِّمِّ ، فَتَكْلِفُ
الْبَشَرَ لِيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى اَزْدِرَادِ غَضَبِهِ . حِينَ يَخْرُجُ
مِنَ الْمَعْمَعَةِ بِالْكَسْرِ الْيَابِسَةِ ، تَارِكاً الْهَدَايَا
لِلْمَرْمُوقِينَ .

إِىِ وَاللَّهِ إِنِّى لَأَخَالُكَ فِى كَفْنِكَ تَبْسَم ! بَلْ
إِنْ التَّمَاعُ كَفْنَكَ الْحَرِيرِ لَمِنْ بَعْضِ ابْتِسَامِكَ .
هَكَذَا ارْتَأَيْتَكَ بَعْدَ عَامٍ فِرَاق ! حِينَ طَالَعْنِى مِنْ
خِلَالِ الظَّلَامِ كَفْنُكَ الْأَبْيَضُ يَلْتَمِع ! كَأَنَّهُ ثَنَايَا
رَاحَتِ تَبَسُّم ! وَلَكِنْ قُلْ لِّى أَيُّْ بِسْمَةٍ بِرَبِّكَ
هَذِى ؟ وَأَيُّْ عَذَابٍ مَرِيرٍ ذَلِكَ الَّذِى يُشِيعُ مِنْ
أَضْوَائِهَا الصُّفْرَاءُ ؟ أَتُرَى هِىَ بِسْمَةٌ مِنْ غُلْبٍ
عَلَى أَمْرِهِ فَاثْمَثَل ؟ أَمْ تَرَاهَا بِسْمَةً مِنْ رَاحٍ
يَسْتَخِرُ مِنْ مَصِيرِهِ ؟

هَيْه يَا شَقِيقِى ! قَضَى اللَّهُ وَلَا رَادَّ

لقضاؤه ، فناما إذن معاً ، وعن كُثْبٍ منكما
أبوكما يباركما . ناما في ثوبكما الحريرين .
وشبابكما الموفور . المتصف من الحسن بأجلاه .
ومن الخلق بأكماله .

والوداع فقؤادى يحدثنى بأن هذه آخر دمة .
وأنا عما قليل ملتقون ، فما يبقى من بيكيسكما
بعدى ويزرف الدمع . أجل ، فلقيد كنتُ
الآخر الذى بقى على المسرح ، بعد أن تهاوى
على خشبته جميع أبطال المأساة . وما هو ذا
يتناهى إلى سمعى وأنا ألقى عباراتى الأخيرة ،
صوتُ المخرج يأمر بالتأهب لانزال الستار .

إنْ هى إلا برهةٌ حتى تطفأ الأنوار .
ويخلو المسرح من أبطاله ، ليُعيد نفسه لتمثيل
مأساةٍ جديدة . يقوم بأدوارها أبطال آخرون .
ويشاهدنا القوم فى ليلةٍ غير الليلة . واهاً للحياة

التي ما تفرغ من الماسي ! ولأرضها التي ما
ترتوي من شرب الدموع .

٤٢

لَهْفِي عَلَيْكَ يَا « حُلِي » ! لقد كنتُ أنظر
إلى وجهك المسجّي من تحت الغلالة الخضراء التي
أسدلوها عليه عقب أن أسليت الروح ، وكأني
به وردة تتوارت خلف أوراقها لتتجاشى فضول
الناظرين ، ممن تدفعهم حرقّة الحزن إلى انتهاك
حرمة الموتى بإدمان النظر إليهم .

وإني لَمَّا زلتُ أذكركم من مرّةٍ كنتُ
مع الناظرين أنظر ، إلى ذلك الوجه الوسيم ذي
الشعر الذهبي والوجنتين اللتين لم يكن قد غاض
وردُهما بعد ، الموفور بأنضر الشباب ، الموسوم
من الذكاء بأحدّه ، ومن النبل بأعرقه ، ثم

أرثى وفؤادى يتمزق ، لهذا الجمال الذى اختفى من
من رياض الحسن ، قبل أن يتاح له أن يتبادل مع
الزهور من لداته تحايا الصباح الذى جمعه وإياها
على وارف الأيك ، ثم لم يمهله حتى يضوِّع مثلها
تضوِّعُ نسمةَ العطر التى تنفّسها فيه .

ولقد لبثتُ أتساءل ودموعى على خدى تفيض ،
كيف أنه انطفأ فى عينيك ذلك الوميض فما عادتا
تتألقان ؟ وخبا على شفّيتك ذلك الافترار فما عاد
تغرُّك يبرسم ؟ وخمدت من جبينك المتوقد جذوة
الذكاء فنسى ؟

نعم يا شقيقى ، لقد لبثتُ أتساءل وأنا أحرار
أأسى لك أم لقسوة الدهر أعجب ، غير أن
نظرةً منى حانت إلى عينيك فسرعان ما واتانى
الجواب . أجل عينيك ، اللتين لم يكن قد أحكم
غمضهما فبدتا وكأنهما ساجيتان ، ولبثتا تطلان

عن زوايا الجفون وقد بعثنا بنظرة واحدة ،
واحدة ما تبدل ، فيها سخرية وفيها نسيان ،
وكانها ما تنفك تقول :

خَلِّ يا صاحب الرثاء وخسل العجب ، فإن
الحياة مهزلة أي مهزلة . وهذي نظرتي أعبر لك
بها عن الحقيقة تعبير صدق بعد أن ذقتُها
وسبرت غورها بنفسي . لا تجهد في التذكر نفسك
وانسني . إني ميت ، والموت نسيان .
وصيحاتك ان تبلغ أذني ولو أرسلتها بحيث
تبلغ عنان السماء .

أخي ! ما هذا بربك ؟ نعم ، إن الموت
نسيان ، ولكن ماذا تعني ؟ أمّا من أمل وإن
طال الانتظار ؟ كلا ، كلا بربك ! لا يكن
نسيانك أبدًا ! أستحلفك ! أفق ! أفق ،
ولو بعد حين ! وليكن نومك إلى أمد .

ثم ، ثم تفيق ! نعم تفيق وتذكّرني !

٤٣

تالله يا « حلى » لقد كنتُ أظلمك ، حين
كنتُ أنظر إلى وجهك الزاخر بالشباب واستبعد
الموتَ عليه . وآخذك ببشاشتك يومئذ وعنفوانك ،
غير عالمٍ أنهما كلمة البرق ما يلبثان وفي مثل
خطفِهِ أن ينطفئا . وأن وراءهما لكآبةٌ
وشيكاةٌ ، وضعفاً أديّاً كلاهما يفتت إلا كباد .

آه يا شقيقى ! لمَ غبطتُك على شيء لم يكن
فيك ؟ أو كان فيك ولم يكن لك ؟ لمَ ؟ لمَ
نظرتُ إليك بميلٍ عينيٍّ ، أنتَ يا من كنتَ
والموتُ يسرى خفيّاً فى عروقك سمّةً ، أرقّ
من أن تتحملهما ؟

لمَ ظننتُ بشبابك أكثر مما قد كتب عليه
أن يفرغ عنده ؟ وبعمرك أكثر مما قدّر أن

يطول له ؟ وعددتك ظمأ في الأمل ابتسم لهم
الحظ ، وعلم الله لم يكن في الأشقياء من كان
ينتظره مثل شقائق ؟

آه ، لم أسأت الظن بعينيك حين راحتنا
تحدثاني بأنك قصير الأجل ؟ وبأنه من عمر
ذاك الزهر عمرٌك ؟ فخرمتك من العطف الذي
نحمله لكل راحل موشك على الرحيل . ولم
أعاملك كما تعامل الزهور الرقيقة ، تلك التي
هي عما قليل ذاوية .

يا ليتني كنت علمت أنك راحل ! إذن
لكنت قطفت لك أجمل ما في بستان الحياة من
زهر ، ونسقت له لك طاقات القى بها بين
يديك . وجمعت لك أطيب ما في أفئدته من
فاكهة ، ووضعتها في سلال تحملها إليك الغيد .
ولكن كنت سخرت الطيور الغردة لتغني لك .

وَأَنْدَاءَ الصَّبَاحِ لَتَضُمَّنَّجْ جَسَدِكَ . وَلَوْ قَفْتُ عَلَى
بَابِكَ لَيْلَ نَهَارٍ ، أَسْكَبُ فِي أُذُنِكَ نَغَمَاتِ نَائِي
الْحَنُونِ . حَتَّى إِذَا مَا ذَهَبْتَ إِلَى حَيْثُ لَا شَيْءَ
تَقَرُّ بِهَ الْعَيُونُ ، لَمْ تَشْتَهَ نَفْسُكَ نَعِيمًا فَاتَهَا وَكَانَ
مِنْهَا قَابَ قَوْسَيْنِ .

نَعَمْ ، فَلَا شَيْءَ وَاللَّهِ حَيْثُ أَنْتِ الْآنَ يُفْرَحُ
قَلْبُكَ . لَا شَيْءَ وَاحْشِرْتَنَا لَا شَيْءَ ! فَيَا لَيْتَكَ كُنْتَ
قَدْ أَخَذْتَ نَصِيْبَكَ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ ، يَا لَيْتَكَ !

نَعَمْ يَا لَيْتَكَ ! وَيَا لَيْتَنِي كُنْتَ عَلِمْتَ أَنَّكَ
رَاحِلٌ ! آه ، وَلَكِنْ عَلِمَ ذَلِكَ وَأَسْفَا فَاتَنِي .
وَحَسِبْتُكَ مَجْدُودًا حِينَ كُنْتَ سَيِّئَ الْحَظِّ . وَمَقِيمًا
عَلَى حِينِ أَنَّكَ ضَيْفٌ . فَعَامَلْتُكَ مَعَامِلَةَ الْأَحْيَاءِ
الْمَا كَثِيرِينَ إِلَى أَمَدٍ ، لَا الْمَوْتَى الَّذِينَ شَدُّوا رَحْلَهُمْ
وَتَأَسَّبَوْا لِلنَّوَى . نَعَمْ ، لَمْ أَكْرَمَكَ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ
يُكْرَمَ الضَّيْفُ . الضَّيْفُ الَّذِي هُوَ تَارِكُنَا عَمَّا قَلِيلٍ .

ولقد اقتسمتُ زادى معك ، كأَنَّكَ كُنْتَ
مِثْلِي مَقِيمًا ، أَوْ كَأَنِّي كُنْتُ رَاحِلًا مِثْلَكَ . تَبَّأَ
لِي ! أَوْ مَا كَانَ يَجْدُرُ بِي أَنْ أُعْطِيَكَ سَلَفًا
نَهَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْكَ
أَنْ لَا تَعِيشَهَا ؟ أَوَلَمْ تَكُنْ أَيَّامَكَ ، يَا مَنْ
مِتَّ وَالْعَمْرُ فِي مَقْتَبَلِهِ ؟ أُمِّهَلْتَ حَتَّى تَبْلُغَهَا
أَمْ لَمْ تُمَهِّلْ ؟ رُدِّتْ إِلَيْكَ أَمْ مِنْ عَمْرِكَ
اِقْتَضَيْتَ ؟ أَوَلَمْ تَكُنْ بَقِيَّةَ ذَلِكَ الْحَقِّ الَّذِي
مَا اقْتَضَيْتَ مِنْهُ إِلَّا أَقْلَهُ ؟

وَاهَا لِي مِنْ جَاهِلٍ بِمَصِيرِكَ كُنْتُ ! وَاشْدَدْ
أَسْفَاهُ ! مَاذَا عَلَى الْأَيَّامِ كَانَ لَوْ أَنِّي عَلِمْتُ ؟
فَوَضَعْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ كُلَّ مَا مَلَكَتْ يَدِي . وَقَضَّيْتُ
أَيَّامِي كُلَّهَا مَسَازِمًا ظَلَمًا . أَنْظُرْ فِي وَجْهِكَ .
وَأَمَلَاءَ عَيْنِي يَا تَارِكِي مِنْكَ . لَا ابْتِغَامَ أَنْ أُطْفِئَ
مِنْكَ شَوْقًا أَجَلًا مِنْ أَنْ يَنْطَفِئَ ، وَإِنَّمَا لِاشْغَلْ بِكَ
فِرَاقَ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي كُنْتُ سَاعِيشَهَا مَعَكَ .

إيه يا « حلى » ! كأنى ببستانك الذى
قضىيت ولما تقتطف أزهاره ، قد تركت على
كل زهرة فيه لمحة ضوءٍ من شوقك المعذب .

لهفى عليك ما كفاك أن تودعه وتذهب ،
حتى أكرهك الهوى على أن تودّع رمةك
معه ! كأنك حتى حين تموت ، قضيت عليك
أن لا تجتمع على شمالك . وأن ترحل بالبعض
من روحك ، مخلّفاً الذمّاء وراءك .

عزيزى عليك والله أن ترحل عن بستان قد
استودعته أشواقك ، تاركاً أزهاره دانيةً
لكل عابر سبيل ، حراماً عليك وحبك .

يا ليتك قد عراه الجُفوف من بعدك ،
فما تشاهدُ عليه هذه الأشواق تعيش بمنأى عنك
وتتعذب ! يا ليتك ، فتبلى معك أو تُردّ عليك !

أخى ! لمَ مِتَّ وعاشت أزهارك ؟ لمَ لمَ
يطورها العدمُ الذى طواك ؟

لقد كنتُ أحسب حين دعاك الموتُ فلبيت ،
أنه قد دعاك لراحةٍ أبدية . ونسيت ، نعم نسيتُ
أشواقك التى ما تودُّ أن تنطفئ . نسيت أنها هناك
ملءٌ حديقتك ، محلقةٌ فوق كل مَبْسَم ، جاثيةٌ
عند كل كَمَمٍ ، تستحلف الأزهار أن تحنو عليها
كما كانت فى حياتك تفعل ، والأزهارُ التى لم
تعدْ وأأسفا تعرفها عنها لاهية .

لِمَن بَعْدَكَ هذى الزهور يا شقيقى ينشَق
عبرها ؟ وهذه الفواكه يرشِف عصيرها المعسول ؟

من ذا الذى سواك سيجوب طرقات
حديقتك ، وبفىئىء أشجارها سيستظل ؟ ويقفُ
عند كل زهرةٍ مفترسة ، ويقتطف كل ثمرةٍ دانية .

عجَبى للخبثون لمَ تذبلُ بَعْدَكَ ! عجَبى لها

ما تزال تزدهر وتتضوّع !

لَمْ لَمْ لَمْ يَقِفِ الْمَاءُ الَّذِي تَرْتَوِي بِهِ غَصَّةً
فِي حَلَقَتِهَا ، أَوْ يَتَحَوَّلَ الضَّوُّ الَّذِي تَمْتَصُّهُ حُرْقًا
فِي جَسَدِهَا ؟

كَيْفَ لَمْ تَخْلُقِ أَبْوَابَهَا فِي أَوْجُهُ الزَّائِرِينَ ،
وَتَحَرَّمَ عَلَى أَطْيَارِهَا الشَّدْوُ ؟

كَيْفَ لَمْ تَكْفِ بِرَاعِمْهَا عَنِ التَّفْتِيحِ ، وَعَنِ
التَّارُجِ زَهْرَاتِهَا الْمُتَفَتِّحَةِ ؟

كَيْفَ لَمْ تَلْبِسِ عَلَى مَوْتِكَ الْحِدَادَ ، أَنْتِ
يَا مَنْ أَلْبَسْتِهَا فِي حَيَاتِكَ ثِيَابَ الْعَرَسِ ؟

كَيْفَ لَمْ يَحْتَرِقَ زَهْرُهَا فِي جَوَى أَشْوَاقِكَ ،
مُؤَثِّرًا أَنْ يَبْرُكَ هَذِهِ الْأَشْوَاقُ تَحْتَرِقُ عَلَى
وَرَقَاتِهِ وَتَضِيءُ ؟

كَيْفَ لَمْ تَعْفَ عَنْ أَنْ تَسْرِقَ زَمْقَ مَيِّتٍ ،
وَتَسْتَخْرِقَ نَوْرَهُ فِي زِينَتِهَا ؟

ومضتْ بِشَوْقِكَ حَتَّى بَسَدَتْ حَسَنُهَا ،
وَاسْتَمْتَعَتْ بِهِ مِنْ دُونِكَ وَمَتَّعَتْ النَّاضِرِينَ !
وَاتَّخَذَتْ مِنْ ضِيَاءِ مَنْكَ اسْتِضَاءَاتٍ بِهِ ، نَاراً بِهَا
تَهْلِكُ !

عَجَبِي ! عَجَبِي لِلْخَشُونِ لَمْ تَزَلْ تَتَأَلَّقُ !
وَذَلَيْتَ وَلَمْ تَذْبُلْ مَعَكَ !

٤٥

أَتُرَى تَدْرِكُ يَا « حَلَمِي » ، وَأَنْتَ فِي
الْقَبْرِ مَغْمِضٌ وَالنَّسِيَانُ يُغْرِقُ كِرَاكَ ، أَنْ
ثُمَّ شَقِيقاً لَكَ عَلَى الشَّاطِئِ الْآخِرِ مِنَ الْحَيَاةِ ،
قَائِماً يَذُكُّكَ وَيَهْلِكُ لَكَ ؟

أَتُرَى تَدْرِكُ ؟ فَتَبْعَثُ إِلَيْهِ بِالتَّحَايَا عَلَى
أَجْنَحَةِ رُوحِكَ الْعَظَامَةِ ، تَهْبِطُ هَبْوَ الْأَهْلَامِ
عَلَى فُؤَادِهِ ، وَتَطْمِئِنُّهُ عَلَى أَنْ عُرْوَةُ الْوَدِّ لَمْ تَنْفَصِمْ ،

وَأَنْ لِلذِّكْرِ بَقِيَّةً وَإِنْ الْمَزَارِ شَطِئٌ ؟

أَتُرَى تَدْرِكُ ؟ بَلْ تَرَى تَذْكُرُ أَنْتَ ؟
شَيْئاً عَنْ هَذَا الشَّقِيقِ ؟ أَوْ شَيْئاً عَنْ هَذَا الْإِنْسَانِ ؟
مَنْ يَكُونُ وَأَيْنَ أَوْ مَاذَا هُوَ ؟ أَمْ أَنْكَ لَمْ تَعُدْ
تَذْكُرْ ، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ مِلَّةَ فُؤَادِكَ ؟
وَلَا أَنْتَ تَدْرِكُ ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكَ مَا قَامَ يَهْلِي ؟

كَثِيرَةٌ مَا كَانَتْ الْبَسَمَاتُ الَّتِي أَرْسَلْنَا مَعَا .
وَالْدُمُوعُ الَّتِي أَزْجَيْنَا مَعَا . وَجَمِيلَةٌ وَثَمِينَةٌ أَيْضًا .
أَفَإِذَا كُنْتَ لَمْ تَعُدْ تَذْكُرْ ، تُرَاهَا إِذَنْ
ضَاعَتْ هَبَاءً ؟

إِنَّا نَحْنُ نَمْضِي ، وَلَكِنْ ، أَمَّا يَبْقَى لَنَا
عَلَى الْإِقْلَ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّنَا كُنَّا ؟ عَزِيزٌ عَلَى
النَّفْسِ وَاللَّهِ أَنْ تَصْبَحَ مَحْثُورًا . وَأَنْ تَكْدَّ فِي
السَّهْرِ عَلَى نَفْسِهَا إِلَى أَنْ تَيْنَعَ ، ثُمَّ تَمْضِي فَمَا
تَذْكُرُ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا .

إِنَّا لَكُنَّا ارْتَبَطْنَا مِنْ أَصْدَقِ الْوَدِّ بِرَبَاطٍ
مَقْدَسٍ . رَبَاطٍ لَمْ يَزَلْ قَلْبِي عَلِيمَ اللَّهِ مُوثَّقًا
بِهِ . يَا شَقِيقِي ، فَخَدَّتْنِي أَنْتِ عَنْ قَلْبِكَ ، أَمَا يَزَالُ
بِهِ مُرْتَبِطًا ؟ بَلْ قُلْ لِي ، أَمَا يَزَالُ لَكَ قَلْبٌ
يُرْتَبِطُ ؟ بَلْ أَتَذْكُرُ أَنْتِ شَيْئًا عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ؟
حَدِيثِ وَدَّنا وَحَدِيثِ قَلْبِكَ ؟ أَتَذْكُرُ مَا إِذَا
كَانَ أُمٌّ لَمْ يَعِدْ لَكَ قَلْبًا ؟ ثُمَّ هَلْ تَذْكُرُ أَنَّكَ
لَا تَذْكُرُ ؟

أَجِبْ يَا شَقِيقِي . أَجِبْ ، إِنْ اسْتَطَاعَ مِنْ
كَانَ مُحْوًا أَنْ يَحْيِي . أَجِبْ ، وَلَوْ بِإِيمَانٍ مِنْ
إِيمَانِكَ الشَّاحِبَةِ الَّتِي تَشِيرُ إِلَىَّ بِهَا فِي الْأَحْلَامِ ،
عِنْدَمَا تَجِيئُنِي فِي الْكَرَى وَمَا أُنْدِرُ مَا تَجِيءُ !
وَتَلْبَثُ وَمَا أَقْصِرُ مَا تَلْبَثُ ! وَتَلُوحُ وَلَيْسَ أَخْفَى
مِنْ غَمُوضِكَ ! وَتَبْدُو وَمَا أَشَدُّ مَا تَرِيدُنِي فِيكَ !
حَتَّى لَتُحَسُّ رُوحِي وَرَغْمَ أَنَّهَا تَحْتَ سَيْطَرَةِ
الْكَرَى تَكُونُ ، أَنْ وَهْمًا مِنْكَ ذَلِكَ الَّذِي

يُرى ، وخداعاً ذلك الذى راح بالحقيقة يلتبس .
وما تلبث أمام ذلك اللغز لغزك ، أن تقع فى
مثل حيرة الطفل الذى ما له فيما أُريدَ عليه حيلة .
يخدعه ذبوه فى الشيء فتأبى غريزته أن تصدّق .
ويرتاب فما يعرف كيف ولا لم ؟ حتى إذا
ما ازدادت به الحيرة فما درى أياضل على شكه
أم يؤمن ، انطوى على نفسه فى هزيمةٍ الله
للنفوس العاجزة من شدة وطأتها .

حدثنى يا شقيقى بربك . إن جئتني فى الأحلام
وهماً كمدأبك . وعليك من الزيف ما يريني
فيك . حدثنى وبإيماءٍ من إيماءاتك الشاحبة .
وقل لي هل تذكر ؟ ودنا القديم على الأرض ؟

إي والله حدثنى . لكما أطمئن . أطمئن
عليك أنت . على أنه لم تزل لك ذاكرة . ولم
يزل لك وجود . وأنت لم تصبح عدما . وأن

ثُمَّ أَمَلًا فِي اجْتِمَاعِ الشَّيْثَيْنِ . وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ .

حَدَّثَنِي . حَدَّثَنِي مُؤَمِّسًا . حَدَّثَنِي وَإِنْ كُنْتُ
فِي قَوْلِكَ سَأَرْتَابُ حَتَّى وَلَوْ بِالْإِيجَابِ أَوْ مَاتُ .
وَكَيْفَ لَا أَرْتَابُ وَأَنَا الَّذِي أَشْكُ حِينَ تَحْضُرُ فِي
وَجُودِكَ ؟ وَأَرَاكَ وَالْبَاطِلُ يَكْتَنِفُكَ ؟ وَالْعَدَمُ
يَدْمِنُكَ بِطَاعِهِ ؟

كَيْفَ ، كَيْفَ يَا رَهْمَنَ الْعَدَمِ ؟ كَيْفَ أَصْدَقُ
أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ لَكَ ظِلٌّ يَتَحَرَّكُ ؟ أَقَدَهُ غَرَنِي
مَنْكَ أَنْكَ تَجِيئُنِي فِي الرَّوْى ؟ وَأَنْكَ تُؤَمِّىءُ
إِذَا تَجَيَّءُ وَتَتَحَدَّثُ ؟ إِذَنْ فَإِنَّ هِيَ إِلَّا أَشْوَاقِي
شَبَّهَتْكَ إِلَى . وَاسْتَعَارَتْ مِنْ ذَاكَرَتِي مَا اخْتَزَنَ
فِيهَا مِنْ أَطْيَافِكَ الْحَبِيبَةِ ، ثُمَّ صَاغَتْ لَكَ مِنْهَا
صُورًا تَتَحَرَّكُ . لَهَا اللَّهُ تُمَوِّهَكَ عَلَى ! نَعَمْ
تُمَوِّهَكَ ، وَإِلَّا لَمَّا أُتِمَّتْ هَزِيلًا هُزَالًا الطَّيْفِ
عَفَا ، فَتَسْبِغُ عَلَيْهِ الْبِمَادُ ضَبَابَهُ . وَلَمَّا كَسَاكَ
الْبَاطِلُ بِقِنَاعِهِ الزَّائِفِ . ذَلِكَ الَّذِي يَكْسُو بِهِ

الظلال إذ تسجوا ، أو الصور إذا تنعكس .

لا ، لا . إنك مَجهولاً أصبحت . قلبي
يحديثي بذلك . بأنك أصبحت نسياناً . نسياناً
في نسيان . نسياناً وإلى الأبد نسياناً . كالأمس
كان وهو بعدُ لا يكون . أو كزهرة الربيع
يطلع الخريف عليها وهي عدم .

رَبِّ قَدَرَهُ عَلَى أَنْ أَكُونَ مَخْطِئاً فيما ظننت .
وَأَنْ يَكُونَ النسيان إلى حين . والذكرُ إلى
بعث . وَأَنْ يَكُونَ لورْد الربيع الذأوى ربيعٌ
في الفردوس آخر . وَأَنْ يَكُونَ ذلك الفردوس
ملتقى الأحباب أجمعين . وأيكهُ مغناهم بعد حين .

والسلام عليك يا أخى . السلام عليك وعلى
مَنْ نام معك . نوماً ما له في حياتنا من
مفيق . تَغْطِطُونَ فيه غطيظاً ما ينتهى . السلام
عليكم ، ذَرَّفَ المَوْجَعُ آخرَ دَمعة . وإلى اللقاء

إن شاء الله في يومٍ وشيكٍ . تجتمعنا الأحداثُ
فيه على كَرِّى ما نَعِى فيه عن لقائنا شيئاً . ثم
نصحبو على نفخة الله تعالى في الصُّور . فتتفضلنا
عنها المقابرُ إلى النور من جديد . وأفتح عينيَّ
على طلعة وجهك الحبيب . وطلعت الثاوين معي
ومعك ، رُدَّ عليهم وعليك ما أكلتُ منكم
القبور . يومَ يفتح كلُّ منا ذراعيه لأخيه . ثم
نتعانق بعد فراق طويل . حتى إذا ما شفينا
لوعةً بالفؤاد ، وانتهينا إلى الديان كلُّنا يؤدي
إليه حسابه ، فربَّتْ حسناتنا على السيئات
وخرجنا من لدنّه بيضَ الوجوه ، مضيّنا إلى
الفردوس لنواصل فيه معاً حياةً جديدةً . خاليةً
من شوائب الأحزان وأضرار الكدر . لا تعرف
نواميسها الفراق وآلامه .

الوداع يا موتاي فلن أبكيكم للناس بعد . لقد
لاح لي من خلال القبور مُضْطَجَعٌ هادى .

وطرَقَ أذُنِيَّ نَدَاءٌ شَبِيهُهُ بِذَلِكَ الَّذِي قَدْ كَانَ
أَذُنِيكُمْ طَرَقَ . وَإِنِّي لَأَصْبِرُ إِلَى تَلْبِيَةِ هَذِهِ
الدَّعْوَةِ . وَإِلَى رَقْدَةٍ فِي ذَلِكَ الْمَضْطَجَّعِ مَرِيحَةٍ .
فَلَا تُأْهِبْ إِذْنَ هَذَا الرَّحِيلِ . وَلَا بَدَأُ . بَأَنَّ
أَوْدَى مَا لِلَّهِ عَلَىَّ مِنْ دَيْنٍ . لِأَصِلَّ لَهُ وَأَسْبَحَ
بِهِ سُبْحَانَهُ . وَلَأَسْتَغْفِرَهُ مِنْ ذُنُوبِ أَسْلَفَتِ .
الْوَدَاعُ يَا مَوْتَايَ ! الْوَدَاعُ جَمِيعًا . وَإِلَى الْإِلْقَاءِ وَشَيْكَا
فِي الرَّمْسِ . ثُمَّ فِي الْفَرْدُوسِ مِنْ بَعْدِ .

٤٦

إِلَهِي ، ذَلِكَ الْفَجْرُ مِنْ سَنَى مَحْيَاكَ فَهَذَا
أَقْوَمُهُ .

إِلَهِي ، لِكِي أَبْصِرْ وَجْهَكَ .

لَئِنْ هُوَ مَحْرَابُكَ وَعَلَيْهِ مِنْ قِدَمٍ حَلَّتْ

بركتك .

تفتتح إذ يطلع أبواب السماء فما يبقى من
حجابٍ دونك .

وبهديه يفيق الغافل من عبادك على نور
مشكاة .

وفي حرمة تأتيك الوفود سجداً تسألك
المغفرة .

إلهي ، وإنّ عليه منك لاسماء الورع .
كأنّ بضبا به الرقيق بخورٌ يُحرق في معبد .
وما تلك السكينة التي ترفرف على نوره ،
فأحسبه معها وكأنه يفضّ الطرف ،
إلا مخايل تُقَى ،
وأماراتٌ من يحمل بين جنبيه نفساً مطمئنة ،
لمْ تعكرها غيومُ الأحزان ،
أو تزعجها وخزاتُ الضمير .

نفساً من رُبَّةِ الشهوات تحررت .
فما هي قطُّ تتطالع ،
وفي عينيها ذلك البريق الخاطف ،
الذي يَشْهَرُ في سيوفه الاءثم .

إني لأعوذ بالله من وهج الشمس !
تلك الغانية الخليعة ،
المكشوفة النقاب لكل عين ،
وفي لحظها من النزوات سيوفٌ مساولة .
تسدّد الخيط من الشعاع يَمُرُّ كالسهم ،
وفي غير وجلٍ واستحياء ،
فيثدّر اللحظ المفسد ،
والاقتزار المميت .

كما أتى أعوذ به من هذا الليل ،

ذلك الشيطان المقتنع ،
الذي يخفي في تحجبه أشرة النزوات ،
وأخيش الطوايا ،
ويعيش كما تعيش اللصوص في الظلام ،
تلتهم الفرصة السانحة ،
لترتكب الكبائر في صمت .

وأهّا أنت أيها الفجر فقدّيس .
لا أنت بالخبيث ولا بالمتبذّل .
وعليك من الآلوهة مَسُوحٌ خفية .
وإني لألبس الآن من مسوحك أثواب
الورع .
وبالصلاة أتجه إليك يا الله .

إلهي ، هأنذا أسجد لوجهك الكريم وأُسَبِّحُ

بالحِسان من أسمائك .

يا أيها النيام استيقظوا فجراً واعبدوا ربكم .
أنتم يا من تقومون وقت الشيطان وتنامون
وقت الله ،

الذى تفتتح فيه مغاليق السماء ،
فترون منها بقلوبكم مشكاته ،
تحمل في ضيائها آية وجوده .

لا تسألوني على ما أقول برهاناً .
إذا لم يكن حسبكم أنى شعرت ،
فجربوا لتشعروا معي .
إنّ فؤادي ألهمني وكفى .

إنه ليُشعر في الفجر ،
بتقربٍ خفيٍّ إليه سبحانه .

والقلبُ لا يُلهِمُ الشئَ عبثاً .
ذلك أن الملهِمَ صوتٌ من الله .

إن الشَّعرَ ليفعل بالقلب الأفاعيل .
والنغمَ ليلفُّه في تلافيف سحره .
والعقلُ يحار في كل ذلك تأويلاً .
ولكنَّ القلبَ يأتيه السرُّ منقاداً .
فيلبسُ الجمالَ في أثناء النشوة ،
مثلياً تتلامس الأطياف في صمت .
لمسةً عبقريةً لا تقع تحت سلطان الحواس ،
ولكنه يحسها عن كُشْب .
على حين يقف العقلُ مشدوهاً يتفرج ،
وهو يفغرُ في تبلُّدٍ فاه .
ولا يدري ماذا أحسَّ الفؤادُ وكيف ؟

وبعدُ فهذا العقل الذي يحار في تعليل السحر .

أَمَا يَحَارُ فِي حُلِّ لَغْزِ اللَّهِ ؟

أَنْتُمْ يَا مَنْ تَتَجَاهَلُونَ قِيَمَ الْقُلُوبِ !
افْتَحُوا قُلُوبَكُمْ لِتَحْسُسُوا وَجُودَ الرَّبِّ ،
كَمَا تَفْتَحُونَهَا لِتَحْسُوا الشَّعْرَ ،
أَوْ لِتَحْسُوا النِّعَمَ .

إِنَّهَا لَمِفْتَاحُ السِّرِّ ، وَإِنَّ فِيهَا لَمَجْجُمَهُ .
إِنْ شِئْتُمْ لَهَا كَشَفْتَهُ لَكُمْ ،
وَإِنْ أَبَيْتُمْ عَلَيْهَا حَجَبْتَهُ عَنْكُمْ .

إِنَّ الْعَقْلَ لَغَرٌّ أَعْمَى .

يَفْرَحُ بِاللَّعِبَةِ الصَّبْيَانِيَةِ ، وَيَقْلِبُّهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي
بِلَاهَةٍ .

وَيَفْؤُوه اللَّغْزَ الْعَظِيمَ فَمَا يَحْفَلُ بِالْأَمْرِ .

صَنَعَ الطَّائِرَةَ هَذِهِ الْأَلْعُوبَةَ الَّتِي يَكْفِي لِإِظْهَارِ

بساطتها أنها تُرَى وتُلَسَّس ،
فَظَنَ أَنَّهُ أَتَى بِالْعَجَبِ .
وَقَادَ الْجِيُوشَ فَمَا زَادَ عَلَى أَنَّهُ سَخَّرَ بَعْضَ
عَضَلَاتٍ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ،
فَحَسِبَ أَنَّهُ بِالْمُعْجَزَاتِ أَتَى .
وَفَاتَهُ أَنْ مِنْ أَوْتَى سِرِّ النِّعَمِ ،
أَوْ أَدْرَكَ مَوَاطِنَ السَّخَرِ ،
أَوْ اهْتَدَى إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ ،
هُوَ الَّذِي حَقًّا أَتَى بِالْعَجَبِ .
فَاتَهُ أَنْ الْعَجَبُ هُوَ مَا لَا يُسْمَعُ أَوْ يُرَى ،
وَإِنْ تَقَمَّصَ شَيْئًا يَقَعُ تَحْتَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ .
وَأَنَّهُ هُوَ مَا لَا بِالْعَقْلِ يُدْرَكَ ، وَبِالْقَلْبِ
يُحَسَّسُ .

إِنِّي أَنَا مَنْ دَرَجْتُ عَلَى أَنْ أَهْصِرَ قَلْبِي ،
كَلِمًا جَلِسْتُ فِي الْأَشْوَاقِ أَكْتُبُ ،

فَأَخْضَبُ الصَّفَحَاتِ أُمَامِي بِدُمَائِهِ الْمَهْرَاقَةَ ،
وَإِذَا تَفُوحٌ مِنْ دِفْئِهَا رَائِحَةُ الصَّدَقِ ،
تَقَعُ عَلَى الْقُلُوبِ الْوَقْعَ الْحَسَنَ .
وَأَسْكَبُ الدَّمُوعَ أَنْهَاراً بَيْنَ السُّطُورِ ،
تَحْمِلُ فِيهَا ذَوْبَ نَفْسٍ بَشَرِيَّةٍ ،
يَلْبَسُ جِرْحُهَا جِرْحَ كُلِّ إِنْسَانٍ —
أَنْقُلِ الْيَوْمَ إِيْمَانِي ،
إِلْهَاماً مِنْ نُورٍ يَطْفُو فَوْقَ الْوَرَقِ ،
كَمَا تَطْفُو الْأَحْزَامُ عَلَى الْمُتَقَلِّ الْمَكْحُولَةِ
بِالْزُهَامِ .

تُرَى وَلَيْسَتْ تُرَى .

فَالْيَكْمُ يَا مَنْ تَأْخُذُونَ بِالصَّدَقِ فِي الْحَدِيثِ ،
حَدِيثَ صَدَقَ يَحْمِلُ فِي لَهْجَتِهِ بَرَهَانَهُ :
لَقَدْ أَحْسَنْتُ الْإِسْتِمَاعَ إِلَى قَلْبِي فَأَلْهَمَنِي الَّذِي
قُلْتُ .

فعليناكم إذا ما أردتم البرهان ،
أن ترهفوا السمع إلى قلوبكم مثلي .
ولسوف تلهمكم مثلها ألهيمنت .
لأن الإلهام حقٌ ، والحقُّ واحد .

قُومُوا فجرَكم مرة ، وكشِّكم اتجاهًا إلى الله ،
تؤمنوا .

تؤمنوا بأن هذا الفجر حرامه .
وأن السماوات فيه تفتح أبوابها ،
وتُعبد الطريق أمام من شاء أن يصل .

قُوموه مرة ، يأتكم من فوره البرهان .
ولئن فعلتم ، لتأخذنَّها عنى كلبية :
اصبحوا فجرَكم التقي . وناموا ليلكم الداعر .

ذَوِّبْ جَمَالَ الْوَجُودِ فِي كَأْسِ فُؤَادِكَ ،
 وَاسْكِبْهُ عَلَى السَّكُونِ نَغْمَاتِ ذَاتِ عَبِيرٍ وَأَلْوَانِ ،
 تُرْزِقُهُ عَلَيْهِ إِرْذَاذَ النَّدَى جَادَ بِهِ فِي الْفَجْرِ
 ضَبَابٌ رَقِيقٌ .

وَلَسْتُ كُنْ رَقْرَاقَةً كَمِيَاهِ الْغَدِيرِ تَنْسَابُ بَيْنَ
 شُطْطَانِهِ عَلَى مَهَلٍ .

وَضِيئَةٌ كَالشَّمْسِ تَبْعَثُ الْأَنْوَارَ مِنْ ثَغْرِ
 الصَّبَاحِ الْمَفْتَرِّ .

الْإِلَاقَةُ كَقَطْرَةِ النَّدَى تَلْعَقُ فِي شِعَاعِ فَجْرِهَا
 الْمَذْهَبِ .

جَمَّةٌ الْأَشْعَاعِ كَالْمَاسَةِ فِي الظَّلَامِ تَأْلَقَتْ .
 مَدْلَلَةٌ كَحَبَّةِ اللَّوْلُؤِ الْمَتَرَجْرِجَةِ فِي كَفِّ
 حَسَنَاءِ .

نَضِيرَةٌ كَالْعُشْبِ النَّامِي عَلَى ضَفَافِ النَّهْرِ

الميمون .

بهيجة كألوان الزهور القزحية في اليوم
الصحو .

طليقة كظبية الوادي رتعت في المرعى
الخصيب .

مشوبة كأغنية الليل ناجى زهرته من
الأيك .

حاملة كأشعة القمر امتدت على الحقل
المخضر .

حنونا كهمسات النسيم في أذن الفتن
المورق .

مرحة كسقسقة العصفور يحيى عناقيد
الكرم .

يا كية كالغمامة أدرت ماها المكنون
ريح صرصر .

شاكيةٌ كهديل الحمام يرسم على الرمل
ما يشبه الظل .

وهكذا ترسل أنغامك بلسماً ينزل على القلوب
الكليمة نزول صيَّب الأمطار على النبت الظام .
ولا تكُ عنيفةٌ كالرعد يُلهب بسياطه ظهورَ
السحاب فتحمرُّ .

ولا جبارةٌ كالعاصفة تهزُّ مغاليق السماء
في اليوم المطير .

ولا صمّاءٌ كالقفز لا تجد الجذورُ سيلاً
إلى صخوره الخرساء .

ذلك أن نور الله لا يشرق في قلوب الطغاة .
وأنَّ رحمته تعالى لا تهبط على من نضب
مِن الرحمة معيّنهم .

ولأنه تعالى لا يُرى وجهه الجميل مَنْ
لا يتذوق الجمال .

أيها الشاعر لم تترك أحزانك تهجع ؟ هيا
وابعثها من ضريح فؤادك .

ابعثها تبعث معها الليالي ، والهامدين طي
القبور من أحببت .

وابعثهم تشركتهم وإياك في أيامك الباقية ،
وتلنس على رغم الفراق ديب خطاهم وهي
تنتقل عن كذب منك . وكأنهم حينئذ ما كَوَّوْا
بالحزن قلبك ، إلا ليوثقوا ما بينهم وبينك من
ألفة ، فيجمع بينكم الحب على مرّ الدهور .

ابعث أحزانك ! إن تلك البقايا المقدسة
لمن ذخائر القلب ، فعار عليك أن تتركها
هملاً في كهوف نفسك المظلمة .

أطلقها كما تطلق البخور يذيع في كل
منتجع .

ضَمَّخَ بِعَطْرِهَا أَغَانِيكَ سَتَى تَنْتَشِرَ فِي كُلِّ
قَلْبٍ .

لَوْ أَنَّ بَظْلَهَا أَخْيَلَتْكَ فَتَكْتَحِلَ بِهَا كُلُّ عَيْنٍ .
تَدَّ بِذَوِّهَا أَشْعَارُكَ لَيْسِيلَ بِهَا كُلُّ مَدْمَعٍ .
وَهَكَذَا تَنُوءُ بِهَا وَتَحْفَظُهَا مِنْ عَوَادِي الْبَلَى .
ثُمَّ تَخْلُدُهَا مِنْ بَعْدِكَ بِخُلُودِكَ .

وَإِنَّ مِنَ الْبِرِّ بِحُزْنِكَ أَنْ تَفْعَلَ . فَمَا تَعِيشُ
أَنْتَ وَيَبْلَى هُوَ . أَوْ يَبْعَثُكَ الْخُلُودُ وَيُتْرَكَ
نَسِيًّا .

٤٩

مَا إِنْ لَاعِبَتْ مِزْمَارِي وَاهْتَا جَت بِهِ مَجَامِيرُ
الْعِزْفِ ، حَتَّى حَمَلَتْنِي نَفْثَاتُهُ عَلَى أَجْنَحَتِهَا إِلَى
مَوَاطِنِ مَاضٍ بَعِيدٍ ، اخْتَفَتْ أَيَّامُهُ فِي كَهْفِهَا
الَّتِي تَنْقُبُهَا فِي أَطْلَالِ الزَّمَنِ ، آخِذَةً مَعَهَا لِحَظَاتِ

السُرور التي جاءتنا بها في رِكابها ، كما يجيء النهرُ
الميمون بالفيض إلى أنجاء وادٍ ذي زرع .

ولقد طفقتُ حوادثه تتتابع على عينيّ لامعةً
فوق موجات النغم ، ثم ما تلبث أن تنحدر معه
ويلفّها البعد في طيّاته ، وكأنّها سفائنُ موكب
يمر ، أو سرب طير جميل أخذتُ أستعرضه في
الغروب وهو ماضٍ إلى وُكُناته .

فلم أتمالك أن أمسكتُ عن العزف وقد
حدّرتُ عيناى دمعاتٍ عزيزة ، حيّيتُ بها
أرواحَ تلك الأيام والليالي ، وسقيتُ بقطرها
أجداثها العطشة .

وعندما حانت منى إلى مزماری التفاتة ،
وألقيتُ السكون يرفرف عميقاً بين ثقبه ،
جعلتُ أنظر إليه وكأنّي أطلع في صمته الحزين
سطوراً من أيامي الخوالي ، التي غيّبتُ في جوفها

أَصْوَاتَ مَنْ تَغَنَّمُوا فِيهَا وَكَانُوا يَهْجَتُهَا ، ثُمَّ
ثَوَتْ وَإِيَّاهُمْ جَثًّا هَامِدَةً .

• •

واحسرتاه على تلك الليالى التى عشتُها وسراجُ
الآمل يضىء جوانب قلبي ، فأرى الحياة وقد
انعكست أضواؤه عليها جميلة .

أيامَ كنتُ أطرب للزهرة الحسناء ترتعش على
غصنها المياد .

ويهزنى سجع الطيور ينساب فى الأذن انسياب
الجدول .

وتُسعدنى لمَسَاتُ النسيم تمرُّ على الخدود
مَرَّةً القبل .

ويُشرق وجهى للافترار البديع ، يتفجر من
بين الشفاه كأنه الفلق . حتى إذا ما هرب منه

إلى فؤادى قبَس ، فأصاب له فى شِغافِهِ مَخْبَأً
أو فى حَبَّتِهِ ، ومضى يضىء على من نوره
ويؤانس ، أطربُ ويطير صوابى من الفرح .

ويخفق قلبى لنُجَلِّ العيون ، تتنزى مُقَلَمَنَ
فى المحاجر كالزُّبُق . وكلما بَعَثَتْ حَوَاطِها الأضواءَ
من غير حساب ، فمَرَقَ منها إلى قلبى شعاعٌ
ونفذ إلى الصميم ، يُجَنُّ جنونى وأتأوِّه .

وأأسفاً على هذه الأيام التى كم حَبَّتْ إلى
نفسى الحياة ! والتى لم أعد أراها منذ فُقدتُ العين
التي كانت تَرى ! والقلب الذى كان يخفق !

أُتَرى الليالى والأيام لا تذهب ، وإنما تذهب
العيون التى تراها ، والقلوب التى تخفق لها ؟

نعم . أفأ هناك ليلٌ يُعَقِّبُ النهارَ لم
يزل ، ويكجِّلُ بمروده العيونَ الناعسة ؟ ونهارٌ
يعقب الليلَ يوقظها فرحةً على نوره ؟

أفما يطلع القمر من جانب الأفق الغربى
كعهده ، وللعاشقين يتبسّم ؟

أفما تَنُثِرُ الشمسُ في الأصيل على المروج
الذهب ، وتصبغ في الغروب السحاب بلون
الأرجوان ؟

أفما تنساب الجداول بين الحشائش غافية ،
وكأنها شربت من كأسٍ سحرى ما هى منه
تفريق ؟

أفما تنبسط البحيراتُ وفوق شطآنها الصفصافُ
يدلى فروعَه ، وعلى سطحها الزابقُ تسبح حاملة ؟
أفما تشقُّ الغدرانُ طريقَهَا في الوديان ملتوية ،
وعليها من الطير أسرابٌ تصفق بالجناح ؟

أفما تبسُق الغاباتُ تُشارِفُ أشجارها
السحب ، وفي أنحائها تنتشر الأدغالُ مهيبّةٌ
للأجّيين الليلَ في وضح النهار ؟

أفما يُثَقِّلُ النَّدى بِلؤلؤهِ الأزهارَ فتتشى تحت
مكنونِهِ ، ويُخَضِّلُ المروجَ بجُمانِهِ المنشور ؟

أفما تَضُمُّ الخنائِلُ فى أكنافِها العاشقين ،
وتَخْصِفُ عليهم من ورقاتها ما يدبّر لهم عزلةً
هادئة .

أفما هناك عيونٌ نُجِّلُ لم تزل ، تسدّد
النظراتِ كالسهم تخترق القلوب ؟ وشفاهٌ حلوة
الافترار ، يكاد تبسُّمها يضىء وإن لم تلمسه
نار ؟

نعم ، كل شيء ما يزال على عهدِهِ ، ولكننا
نحن الذين وأسفًا تتبدل . يشرق فينا الأملُ
فإذا كل شيء على نوره جميل ، ويقرب فترى
الشمس فى رابعة النهار كسيفة .

ما من ليلٍ هناك تذهب ، وإنما عيونٌ
يخبو ضوءُها . إنما نحن مَن نبلى ، أو

تَبْلِيَّ فرحتنا .

٥١

الآن وقد ودعتنى سفينةُ الأمل إلى حيث
تذهب إلى شواطئها المجهولة ، بعد أن قدِمتُ
تسعدنى إلى حينٍ في هذه الحياة وتمضى .

والآن وأنا أقف وحدى على شاطئ القنوط ،
أرقب السفينة الغاربة وهى تشقُّ طريقها وسط
العباب ، وعليها من المشاعل والأعلام زينةٌ
تبهر الأبصار ، فأناديها تعلقاً بأهدابها ، فما تجيبُ
ويعود ندائى أدراجَ الصدى .

والآن وهى تبتعد فى طريقها يدفعها التيار ،
فتتضاءل فوقها الأنوارُ شيئاً فشيئاً ويتضاءل معها
نورُ فؤادى ، وكأنه لم يكن سوى خيطٍ من
شعاعٍ شُدَّ إلى ضوئها يجتذبه معه أيان اتَّجه —

أسألك الشاطيء والأمواج إلى أين تذهب ،
 فيجيبني عنهما الماضي من خلال همهمة الصمت ،
 بأن يقصّ عليّ حديثَ مقامها السعيد قبل أن
 تُقلِّع ، فيُهمج في القلب لوعاتٍ كانت مستكنّة ،
 وكأني به وقد أنشأ بيكي يقول : يا ليتني ما كنتُ
 سألتُ ولا كان الماضي أجاب !

٥٢

دعْ وخزاتِ ضميرك تذوب في دموع الندم ،
 ثم اغسلْ في نبعها الصافي أوضارَ آثامك .
 واجمعْ منها لجةً تسبحُ فيها إلى ربك ،
 وامثلْ نقيًا بين يديه وعليك من بقايا الدمع
 شاهدٌ عدلٌ على توبتك .

واركعْ أمام عرشه المقدّسِ سبحانه ، وقلْ
 ربّ هأنذا تطهرتُ من أوزاري ، وتحررتُ

من رُبَّة الأَحْزان التي كَبَّلَتْني بها في هذه الحياة
الشقية . حرَّرتني دموعي .

ثم سلَّه تعالى أن يدفع بك في موكب
ضياؤه الفاخر ، ويدمج روحك في روحه السرمد .
وعندئذ حطَّمْ نايك الذي صَنَعْتَ من
اليراع المثقَّب ، واجعلْ نفْخك في نايه السحريِّ
الذي ما يعتوره نشاز .

وانخرطْ في موسيقى كونه الأزلية ، واسبحْ
في نغمها الفرد نغمةً دائمة التردد على الأبد .

وعِشْ وإلى ما لا نهاية في نشوة روحيةٍ
طاغية ، ما لك منها من مفيق .

٥٣

لقد طَوَّقْتُ جِبيْني هالةً من نور ، حين
فُتِّحتْ أبواب السماء وطَرَّقَ أذنيَّ نداؤُك . وإذا

بِمَلَاكِ مِنْ لَدُنْكَ يَدْنُو مِنِّي وَيُيَدِّهِ كَأْسٌ فِيهَا
شَرَابٌ ، ثُمَّ يَوْمِيءَ إِلَىَّ أَنْ أَشْرَبَ .

وَإِذْ أَلْفَيْتَنِي أَمَامَ سَاحِرٍ لَا عَهْدَ لِي بِهِ ، لَمْ
أَتَرَدَّدْ فِي أَنْ أَطِيعَ . غَيْرَ أَنَّي مَا كِدْتُ أَرْفَعُ
الْكَأْسَ إِلَى فَمِي ، حَتَّى ارْتَعْشْتُ تَقْزِزاً مِنْ مَرَارَةٍ
طَعَمَهَا ، وَهَمَمْتُ بِأَنْ أُنَحِّيَهَا عَنْهُ . وَلَكِنَّ الْمَلَاكَ
أَوْماً إِلَىَّ قَائِلاً اشْرَبْ فَشَرِبْتُ . وَخَيْلٌ لِي
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي طَائِفِي إِلَّا أَنْ أَذْعَنَ .

وَمَا إِنْ أَلْقَيْتُ بِالْكَأْسِ فَارْغَةً ، حَتَّى شَعَرْتُ
بِأَنْ شَرَابَهَا وَقَفَ غَصَةً فِي حَلْقِي . وَانْتَابَتْنِي عَلَى
الْفُورِ حُمَّى عَنِيفَةٌ هَزَّتْنِي مِنَ الرَّأْسِ إِلَى الْقَدَمِ ،
وَأَحْسَسْتُ مَعَهَا بِأَنْفَاسِي تَخْتَنِقُ .

غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْحُمَّى لَمْ تَلْبِثْ أَنْ ضَاعَتْ فِي غَمْرِ
نَشْوَةٍ مُقَدَّسَةٍ ، أَنْسَتْنِي مَا كَابَدَتْهُ ، وَمَا خَيْلٌ
لِي إِذْ ذَاكَ أَنَّنِي مَا أَزَالَ أَكَابِدَهُ . وَإِذَا بِي

وأنا في غمرها ، أرى كأن أبواباً صوبَ السماء
تُفتح عن روضٍ بعيدٍ لم تقع عيناى على مثله ،
وإذا تطالعتى منه وجوهٌ عزيزة عرفتُها لأول
وهلة ، وأنشأ أصحابها يلوِّحون لى بطاقاتٍ من
الزهر الجميل وقد علت وجوههم بسمةٌ مشرقة .
فغمرتنى من فورى فرحةٌ طاغية ، أخذتُ
تلحُ بى أن أذهب إليهم وأعجل .

وبعد لحظاتٍ لا أستطيع أن أقيسها ، شعرتُ
جأةً كأن طائراً فى قلبى قد فكَّ عقاله ، ومضى
يرفرف حائراً بين الجوانح ، وفى كل مرةٍ يحاول
أن يدنو من موضع الفم . وفى ذات جولةٍ من
جولاته ، أحسستُ ولست أدرى كيف ، بشفتىَّ
تلفظان شيئاً ، كان أنا .

وللتو انبثق نورٌ قوىٌ من مكانٍ مجهول ،
أخذتُ أتساق خيوطه عبّير السموات فى سرعةٍ

سحرية . وفي مثل لمح البرق ، رأيتني شارفتُ
الروض الذي كنتُ رأيتُ أبوابه تفتَح ، وكان
هو الفردوس .

وسرعان حين بلغته ، ما تلقفتني أيدي عرفتُ
فيها أيدي من كانوا يلوحون لي منه ، ومن
هم رفاقي الذين سبقوني إلى الحياة الآخرة ، ثم
مضوا بي إلى خمائله وجعلوا يقدمون لي الزهر
والفاكهة .

وما إن حانت مني إلى كوكب الأرض نظرة ،
حتى ألفتُه بقعة سوداء تنبعث منها روائحُ
كريهة ، وصرخاتُ آلامٍ مدوية ، حتى لقد
خلته الجحيم باديء بدء . فاعلمتُ أن
تذكرتُ أيام اليتيم والشقاء التي قضيتها فيه ،
وحمدتُ الله على أنها انقضت .

الآن أختتم حياتي ، وأردُّ الشوقَ إلى شِفاهِ
والدمعَ إلى مَحاجرِهِ . فوداعاً أيتها الدنيا وداعاً
إلى الأبد ، وشكراً على أيامي الشقية .

لقد هَزَت مِحَنُهَا إلى السطحِ كنوزي ، كما
تقلب العواصفُ اليمَّ ظهراً لبطن ، وتأتي
باللاألى من أغوار اللُّجج ، تقذف بها الأمواجُ
إلى الشاطئ .

لو كانت حياتي سالت ناعمةً كالغدير ،
أكان ثمةَ عواصفٍ تقلِّبني وتستخرج المخبأ
من كنوزي ؟

أكنتُ أجدُ عندئذ ما أقدمه هديةً للأجيال ،
يومَ أن أبرح هذه الدارَ إلى ديارِ نائية ،
وأؤدي ديناً على إلى الوجود الذي لفظني إليه ،
وأراني النور من بعد الظلام ؟

أَوَمَا كُنْتَ أَمُوتَ وَأَنَا أَجْهَلُ مَوْضِعَ ثَرَوَتِي
مَنِي ، وَأَدْفِنُهَا حِينَ أُدْفَنُ مَعِيَ فِي التُّرَابِ ؟

مَنْ ذَا الَّذِي يَنْتَفِضُ الدَّمْعَ مِنْ كَهْوِ
الْمَحَاجِرِ ، يَتَرَجَّرُ كَاللَّالِئِ فَوْقَ الْمَقِيلِ ، ثُمَّ يَسِيلُ
عَلَى الْخُدُودِ كَالْجَدَاوِلِ ؟ أَلَيْسَ الْأَلَمُ ؟

مَنْ ذَا الَّذِي يَبْعَثُ مِنْ حَدَائِقِ الْفُؤَادِ الزُّفْرَاتِ
الْمَشْبُوبَةِ ، دَافِئَةً كَأَنْفَاسِ الرِّبِيعِ ، حَامِلَةً مِنْ
رُبَاهَا النَّائِيَةِ عَبِيرَ زَهْرِهَا الْبَرِّيِّ ، فَتَنْعَشُ إِذَا
تَسَرَّى مَوَاتِ الْنَفُوسِ ، وَتَنْفُضُ الْأَشْوَاقَ مِنْ
سَجُوفِ الرِّقَادِ ؟ أَلَيْسَ الْأَلَمُ ؟

مَنْ ذَا الَّذِي يَرْسِلُ النِّعَمَ الْمُبْهَوِّحَ مِنْ نَفْسِ
الشَّاعِرِ ، يَلْبَسُ بِبَحْتِهِ الْقُلُوبَ الْجَرِيحَةَ ، فَيَطْلُقُهَا
بِالْبَثِّ الْخَفِيِّ ، وَيَسْرِّحُ مَعَهَا آلَامَهَا الدَّفِينَةَ ؟
أَلَيْسَ الْأَلَمُ ؟

مَنْ ذَا الَّذِي يُوْقِدُ النَّارَ فِي مَسْجَامِرِ أَشْوَاقِهِ ،

فيَضْوَعُهَا فِي الْآفَاقِ بِخَوْرٍ ذَا عَبَقٍ ، يَنْشَقُّ
الْمُتَيْمُّ فِيهِ عَطُوراً مَسْدَلِيَّةً ، كَأَنَّهَا مِنْ مَوَاطِنِ
الْحَبِيبِ الْبَعِيدِ هَبَّتْ ، فَتَعَطَّفُ الْخَيَالَ مِنْهُ عَلَى
الْخَيَالِ ، وَإِذَا الشَّتِيتِ قَرِيبٌ مِنْ الشَّتِيتِ ؟
أَلَيْسَ الْأَلَمُ ؟

مَنْ ذَا الَّذِي يَعْلَمُ الْمَرْءَ أَنْ يَتَذَوَّقَ حَلَاوَةَ الْيَوْمِ
السَّعِيدِ إِذَا حُلَّ ، وَيَحْرَصَ وَهُوَ يَرْشِفُهَا عَلَى أَنْ
لَا تَمُرَّ فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ ، فَيَعْمَى عَنْ وَجُودِهَا وَهِيَ
مَوْجُودَةٌ ، وَيَفْقِدُهَا وَهِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؟ أَلَيْسَ
مَرُورُ الْيَوْمِ الشَّقِيِّ قَبْلَهُ ؟

مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُوهُ يَنْفَضُ ذَكَرِيَّاتِهِ مِنْ
الرَّمْسِ ، بَاعِثًا مَعَهَا شَخُوصَهَا وَأَمَّا كَيْفَ الْقَدِيمَةِ
مِنْ مَهَاوِي الْعَدَمِ ، مُهَيِّئًا بِحَاضِرَةِ الْإِبْنِ أَنْ
يَبْرَّ بِمَنَاضِيهِ الْأَبِ ، فَيَسِمَ بِالْوَفَاءِ الْجَمِيلِ
تَصَرُّفَاتِهِ ، وَيَنْقُشَ طَابِعًا مِنَ الْخُلُودِ عَلَى أَيَّامِهِ

الفانية ؟ أليس حاضراً شقيّاً تبرّم به ، فدعته
رغبةُ الهرب منه إلى أن يعود بروحه إلى
أحضان عهودٍ غالية ؟

مَنْ ذا الذى يجعله يضيق بدنياه ، ذلك
العالم الصغير ، ويفزعُ إلى عالمه الكبير عالم
نفسه ، فيجوبُ في أضيقه المترامية ، مكتشفاً
أينما سار كنوزَه وطلاسمه ؟ أليس قنوطاً يطفئ
في عينيه بهجةَ الحياة ، فيحملُه على أن يهجرها
ويلوذ بنفسه حيث يلقى في حناياها مستقرّاً
هادئاً ؟

لو أنه كان كسواه من الناس سعيداً ، أكان
ثمة ما يخرجُه من المغمعة ، ويمهد بينه وبين نفسه
سبيل اللقاء ، فيتعرفُ إلى أقرب الأشياء إليه ،
ويعرف عن طريقها ما بعد ؟

ثم من ذا الذى يجعله لا يحفل بمظاهر الحياة

الكاذبة ، ويحدو به إلى أن ينفذ ببصيرته إلى
ما وراء الكون ليتلمس الروح السرمد ؟ أليس
ممللاً ييغضض إليه الحياة ، ويفضى به إلى محاولة
التحرر من قيودها ؟

وبعدُ ألم أكن ذلك الرجل ؟ ألسْتُ أعيش
الآن في ماضى الحبيب نابذاً حاضري ؟ ألم أهر
دنياى الشقية وأسكنُ إلى نفسى وعليها أنطو ؟
ألسْتُ مَنْ طوّح بروحه عبر السماوات إلى
الغيب ، ومن قيود الجسد تحرّر أو كاد ؟

طوبى لمن صهر قلوبهم الألم ! إنهم
وحددهم من يعيشون وقد وضعوا إصبعهم على
السر ، ثم يموتون وقد أدّوا دينهم للحياة .

يا معاصري الكرام ، مَنْ قرأ منهم ومن
سوف يقرأ ! ويا أبناء الأجيال على كسر
الدهور من بعدهم ! ها كم كنوزى نخذوها من

يد الشقاء كنوزاً من جواهر عجب . فيها لآلىء
كالدمع رجراجة . وفيها أصداف كالبسّمات
ملتصعة . وثمّ يواقيت أيضاً في لون الدم .
وماسات تبعث الأشواق أضواءً تتوهج .

نخذوها جواهر ، أو نخذوها زهوراً وكمثل
العهد في الزهر مفترقة المباسم مُخَضَّلَةٌ من نداها
بدموع . تتجمع النقيضين على ورقاتها المرتعشة ،
وتمزج في كاساتها السعادة بالألم .



عندما يدقُّ ناقوسُ القضاء في جوانب كهفك
الموحش فيبلدُ صمته .

وعندما تنبه فأذا ملائكة الموت جاثمٌ فوق
صدرك آخذٌ بخناقك .

وعندما تعزُّ عليك الحياة فتزاحمُ الذكرياتُ

في ساعة الوداع فوق جفونك ، ساكبةً على
أهدابها المتراخية أكواباً من نورِ أعوامِ خلّت ،
فتراها وأنت عن الوعي غائب ، كأحداثٍ
نسبوها إلى عالمٍ خرافي ، أو كأموالٍ دنيا
شُبِّهتْ لك .

وإذ تنكبُّ عليها وأنت ذاهلٌ ، ترشفها
في نهم التمليل يحتسى الكأس التي لم يعدْ يَطْعَمُ
مذاقها — اشربْ إذن رَوِيَتْ أم لم ترتوِ ،
فذاك بالنور آخرُ عهدك .

ولتكنْ كأسُك الأخيرةُ هذي ملى بكل
ما كنتَ شربْتَ ، ولحظةُ الختامِ العمرِ كله
وقد احتشد .

وفارقْ دنياك إذن وكأن الحياة على تنوُّع
ما فيها ليست إلا كأساً واحدة ، وكأن الأعوامِ
الطويلة ليست غيرَ طريقة عين .

وعندئذ لا يحزنك أن كنت فيها قليل
 الزاد قصير السفر . إنما الزاد والأعوام خدعة^٢
 نفهمها عندما تحين ساعتنا . إن أولاهما في النهاية
 إلا جرعة^٣ واحدة ، وأخراهما إلا اللحظة^٤ ليس
 غير . جرعة^٥ الموت ولحظته . نشرب الجرعة
 في اللحظة ، ثم ننسى عنها كل شيء . ويا ليت
 أنا في مذاقها ما نرتاب ! تلك هي الحياة طالت
 أم قصرت .

٥٦

الأيام ! التي قدّر لي أن أحيها ، شارفت
 النهاية .

هذا أرغني تتحشرج النغمات فيه ، ثم
 ترسب في قاعه وكأنها غصّة .

والأكاليل ، التي نظمتها لي أيدي العذارى ،

وعقدتها فوق مَفْرِقِي في الليالي المقمرة ، ذوت
زهراتها وتهاوت .

فإليكم يا من أهدىتموني الزهورَ الحِسَان ،
ولنغمي أصغيتم كلها جلستم في الخنائل تُعاطُونَ
نديما ، أو على شواطئ الأنهار تتشاكون الهوى ،
أزجى وداعاً أبدياً .

لقد جاهدتُ عبثاً في استرجاع الليالي ،
والمرة الأولى بعد أن كانت إذا ذهبَتْ تعود ،
لوَّحت لي وهي تولّيني ظمهرها بأنها لن ترجع .
وسرعان ما لاح على أثرها ذلك اليوم الذي
لبثتُ منذ فجر العمر وفؤادي واجفٌ أنتظره ،
غيرَ عالمٍ متى إن الموعِدُ حان يجيء ، ولا على
أية صورةٍ بشعةٍ يحضر .

وأسفًا ! قضى الأمر وانتهى زمنُ الترنم
بالأغاني ، وحن للمشهد أن يعزف لحنَ الختام .

والآن ، وأنا أسيرُ بين أيدي الساعات
القاسية ، وما من حبيب أو عدوٍّ يستطيع أن
يمسَّ لي يده . والآن ، وأنا أذرف الدمعة
الآخيرة ، على حين أرمق الآمال وهي تغيب ،
وكأنها أحلامُ ليلةٍ سعيدةٍ سقطت عليها اللصوص
في الصباح ، أو أحاديثُ عذبةٌ سكبتها في
مسمعى الأيامِ الحماكية ، فصدَّقْتُها وإذا بها إلى
الخرافة تنسب — لآسى لنفسي تخدعها الليالي ،
وتبذر الآمالَ فيها غُرًّا حسنا ، حتى إذا ما
أبغت ثمراتها ودنت للقطاف ، حملتها معها
وذهبت إلى مكان قصيٍّ ، كمثل غرٍّ يد من
سوانح الطير غنانا في لحظةٍ من لحظات النعيم ،
أغنيةً شجيةً ثم ودَّعنا ورحل .

والآن ، والسفينةُ بي تبعد ، وأشباحُ الحياة
تراجع أمامي شيئاً فشيئاً ، فيطويها البعد في
تلافيف ضبابه — أقسم ما ودَّعت إلا أهلاً

كَلِّفْتُ بِهِمْ ، وَبِقَاعاً عَزَّتْ عَلَى .

فِيهَا أَيُّهَا الْخِلَالُ إِذَا مَا رَقَدْتُ فِي غَدٍ
وَهَمَدْتُ عِظَامِي ، فَادْفَنُونِي إِلَى جِوَارِ دَوْحَةٍ
وَارْقَةٍ ، وَهَيِّئُوا لِي مِنَ الزَّهْرِ مُضْطَجَعاً وَمِنْ
وَرَقِ الشَّجَرِ .

وَلْيَكُنْ فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ الْفَيْحِ مَثْوَايَ ،
عَسَاهَا أَنْ تُفْسِيءَ عَلَيَّ جِثْمَانِي الظَّلَالِ ، كَلِمَا
عَصَفْتُ بِجَوَانِحِي مِنْ حَبِيبِكُمْ أَشْوَاقَ ، مَا أَرَاهَا إِلَّا
سَتَظِلُّ عَلَيَّ رَغْمَ الْبَلَى تَضْطَرُّمُ .

أَهْ ، لَوْ كُنْتُ وَعِظَامِي تَتَحَرَّقُ فِي التَّرَابِ ،
أَدْرِكُ أَتَنِي عَلَى جَهْرٍ حَبِيبُكُمْ أَتَقْلِبُ ، وَلَكِنَّ النِّسْيَانَ
وَيَا لَهُ مِنْ عَدُوٍّ لِلْوَدَادِ ، سَيَحْشُرُنِي وَأَسْفَا
أَنْ أَقْتَضِيَ بِتَذَكُّرِكُمْ ثَمَنَ عَذَابِي .

فِيهَا مَنْ كُنْتُمْ مِنْ قَدِيمٍ مِلَّةَ جَوَارِحِي ،
وَعَمَّا قَلِيلٍ وَبَرَغَمِي سَأَنْسَاكُمْ ، تَعَالَوْا أَقْبِلْكُمْ

قَبْلَةَ الْوَدَاعِ ، قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ النِّسيانُ عَلَيَّ جَفَوْنِي
بِأَصَابِعِهِ ، وَيَصْبِغَ الْوَدَّ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا أَحْلَامًا .

تَعَالَوْا تَعَالَوْا وَهَاتُوا جِبَاهَكُمْ الْعَزِيزَةَ ، أَطْبِعْ
عَلَيْهَا بِشَفَتَيَّ الْفَاتِرَتَيْنِ ، قَبْلَ أَنْ كُنْتُ أَصْبُو
إِلَى أَنْ تَكُونَ سَخِينَةً ، ثُمَّ أَمْضِ إِلَى حَيْثُ جَهِيلُ
الظَّاعِنُ وَتَجْهَلُونَ .

٥٧

وَإِسْفَاسًا ! لَقَدْ حَانَ لِلْجَسَدِ الْمَنْهُوكِ أَنْ يَضْطَجِعَ ،
وَالْأَشْوَاقُ الْغَوَالِي لَمْ تَزَلْ تَتَأَجِّجُ .

وَكُلَّمَا انْدَلَعَ مِنْهَا بَيْنَ الضَّلُوعِ لَهِيْبٌ ، أَحْسَسْتُ
وَفُؤَادِي يَتَأَوَّهٌ ، كَمَنْ لَمَسَتْهُ مِنْ حَرِّهَا نَارٌ .

تُرَى إِذَا ثَوِيْتُ وَلَمْ تَجِدْ قَلْبًا تَأْكُلُهُ ،
سَوْفَ تَأْكُلُ مِثْلَ النَّارِ نَفْسَهَا ؟ أَمْ أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ
إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ يَسْتَقَرُّ فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ ،

مثلاً تستقرُّ الأرواحُ التي فارقت أجسادَها ؟
وتُرى سأظل أعيش في جحيمهما كما كنتُ
عشتُ وأتعذب ، أم أن هذا الموت سيكون
بلسماً لجراحى ؟

إنى وإنْ أكنْ قد ذقتُ فيها مصرعى ،
لَيْشُقُّ علىَّ أن يفرِّق بيننا وبعد طول المحبة
موت ، وأود على رغم الشقاء لو لم تنطفىء ، ثم
أُبْعَثُ فى لظاها من جديد .

٥٨

عندما يَسْكُتُ مزمارى وإلى الأبد .
وتذبل أكاليل الزهور فوق جبينى .
وبعد أن تُودِعُوا جسدى الترابَ وتسقوه
بدمعكم .

وبطاقةٍ من أطيب الزهر تحيُّوا رفاتهِ .

عودوا أدراجكم إلى حيث كنتم تنعمون .

وتبعثوا زمراً على طول الرياض ، والبشوا
يُعاطي النديم منكم نديمه ، أقداح الهوى أو
أقداح السُلاف ، على نغماتٍ يوقّعها زممارٌ
جديد .

وعندما يشجى قلوبكم النغم . وبدافع الإعجاب
تصّبون التحية — فاجمعوا من زهر الربى نخبةً
مختارة ، وانظموها للشاعر الجديد إكليل غار .

وفي ذات أصيلٍ من أصائل الربيع جميل ،
أو ليلةٍ من ليالى الصيف مقمرة ، اذهبوا وفداً
إليه يُبهِج الأعينَ منظره ، ثم اعقدوا الإكليل
فوق مسفرقه ، وبالزهور اثثوا فارشقه وعودوا .

وهناك حيث تتساقون الهوى ، أنصتوا
ذاهلين إلى نغمات زمماره ، وهى تنحدر إليكم
من برجه البعيد ، فوق أجنحة النسيمات السارية ،

وطىَّ أرواح العَبَقِ .

وردِّدوها ما استهوى أفئدتكم سحرها
الخلاب ، وحلَّ لكم في فيئها بثُّ الغرام .
واذكروا غير ناسين عاشقاً وشاعراً قديماً ،
كان يحيا ويُعاطي الندامى مثلكم ، ثم ناداه
القضاءُ فتقلَّص ظله ، واختفى النغم من مزماره
إلى الأبد .

وهكذا الدنيا دولٌ تعقبها دول . كلُّ يوم
نديمٌ يحلُّ ضيفاً على الرياض على حين آخرُ في
الثرى يودع . ومليكٌ يلبس التاج على حين
يُخلع آخر .

٥٩

الآن وقد غنيتُ أغنيتي التي هجرتُ ملياً
عزلتى من أجلمها ، ولبيت طلباً سائله عزيز ،
إني إذن لآلى المحراب عائد .

وإني وأنا أؤوب من رحلتى القصيرة هذى ،
أشهد قد رأيتُ مَواطنَ يا طالما من قَبْلُ
رأيتها ، وكانت على عريضة .

فلقد حلقتُ برهةً فوق الرياضِ ، وشهدتُ
الجنائل التى عاطيتُ فيها حبيبتى الهوى ، أيامَ
كنت أرتاد الجنائل ، وكانت لى فيها حبيبة .

وحينئذٍ لعهدى حيّتى من أفنانها الأطيّارُ ،
بأغانٍ تذكرتُ أنى قديماً سمعتها ، وكم انسكبتُ
يومئذٍ فى أذنى شجيرة .

وأشهد أنى يممتُ شَطْرَ الأنهار ، حيث
كنت وحبيبتى نشقُّ بزورقنا المياهَ إلى الضفافِ
النائية . وأنى تابعتُ إلى المَرَسَى خُطَاى ،
وعرَفتُ هناك بين القوارب قاربى .

ومررتُ بديار المهدِ ، فشاهدتُ وأنا أبكى
مَلاعبي ، وطالعتنى منها صورُ طفولتى . ووقفتُ

يُحْجَرُ الْأَهْلُ الرَّاحِلِينَ ، وَقَلَّبْتُ نَظْرِي بَيْنَ
جُدُرَانِهَا الْخَاوِيَةِ وَتَحْسَرُهُتِ .

وَعَرَّجْتُ عَلَى الْقُبُورِ قُبُورِ مَوْتَايَ ، وَذَرَفْتُ
دُمْعاً يَا طَوْلَ مَا شَكُوتُ فِي اعْتِزَالِي نُضُوبَهُ .

فِيَا رَحْلَةً مَا كَانَ أَكْرَمَهَا عَلَيَّ ، وَيَا جَوْلَةً
فِي مِهَادِ الْهَنَاءِ الْقَدِيمِ كَانَتْ ، جُوزِيَتْ خَيْراً
عَنْ لَوْعَةٍ أَجَجَّتْهَا بِالْفُؤَادِ ، وَجُوزِيَتْ الَّذِينَ
بِكَ كَانُوا أَوْعَزُوا .

وَيَا أَيْتَهَا الرِّيَاضُ يَا مَوْطِنَ حَبِي الْقَدِيمِ
وَدَاعَا ! وَدَاعَا يَا زَهْرَهَا يَا أَحَبَّ الْأَزْهَارِ !
وَدَاعَا يَا أَطْيَارَهَا مُحَلِّقَةً كُنْتُ أُمٌّ فِي وَكُنَاتِكَ !
وَدَاعَا وَدَاعَا يَا شَجَرَهَا الظَّلِيلَ وَيَا نَخَائِلَهَا الْحَانِيَةَ !

وَأَنْتِ يَا شَوَاطِيءَ الْأَنْهَارِ ! وَيَا زُورِقِي الذَّهَبِ
وَمَجْدَانِيَّ الْأَبْنُوسِيِّينَ ! وَيَا مَهْدَ طِفْلَوْتِي وَدِيَارِ
أَهْلِي الْأَقْدَمِينَ ! وَيَا قُبُورِ مَوْتَايَ الْكَرَامِ مِنْ

شقيقىَّ وحبيبى وأبى — وداعاً من غريبٍ نازح
قد كان أتى ليحجَّ إلى وطنه القديم ويعود .

ويا أيها الرفاق لا تسألونى إذا ما رحلتُ
مُقاماً ، فإنى وإن تكن أرضكم وطنى ما أُرانى
اليوم إلا عنها غريب . لقد سألتمونى أغنيةً فغنيتهما ،
وصبوتى لدمعةٍ فذرَفْتُها ، وإنى لآلى المحرابِ
عائد .

٦٠

قصيرةً كانت أيها البلبل الناسك فى عالمِ النور
أخيراً جولتُك . إنْ هى إلا لحظةٌ كمثلِ طرفِ
العين ، تلك التى تغَيَّبَتْ فيها ذات صباحٍ عن
صومعتك ، حين دعيتُك زهورُك الشبيقة لعهدك
لكيما تغنى لها أغنيةً وتعود . ومع ذلك ،
فلقد فعلتُ بك واكِداً هذه اللحظةُ الأفاعيل .
يا ليت أن زهورك للغناء ما دعيتُك ، أو

أنها لم تكن عليك عزيزةً فما كنت تليّ سؤلها !
يا ليتها ، فما كنت تخرج من عزلتك المطمئنة
محتماً في سبيل ذلك ما احتملت ، ثم تؤوب
إليها مثقل الضمير مكبلاً بالأحزان !

وبعد ألم يكن من البرّ بحزنك أن
لا تعود تغنى ، منتهاكاً بالشدو حرمةً ، مقلّداً
في مشاها عظامه الهادئة ؟

أو لم يكن من الرفق بقلبك أن لا تعود ترى
النور الذي قد كدت تنساه ، وتُبلّ من بُرحاء
بُعبه عنك ؟

نعم ، كان كل ذلك ، غير أنك وا أسفاً لم
تفعل . وطرت للشدو مدفوعاً بنزقك القديم ،
غير عابئ بما سيجره عليك من ويلاتٍ أنت
عنها في غنى .

وها أنت ذا تعود بعد خلسةٍ حاولتها من

بارقة النعيم ، أفتُراك بالله نجاتٍ من وخز
الضمير ، أو من لوعة الذكريات أنت سلّمت ؟

أو لم يؤنبك ضميرك على أنك تركت أحزانك
ثاويةً في الظلام ، تكسوها الكآبة ويرفرف من
حولها الصمت ، ثم رحت تجوّب في النور
وحدك ، باعثاً من أغانيك المرحّة هنا وهناك ؟

أو لم تذكر أغانيك هذه بالرياض
وعسودها ؟ حين كنت تطوف بزهورك كلّ
صباح ، فتغنيها من صميم أشواقك ما تترنح على
أغصانها طرباً له ، حتى إذا ما انتشيت وانتشيت
جلستما معاً ثمّضيان لحظات سرورٍ ما تُنسى ؟

والنور ؟ ذلك المعبود القديمُ معبودك ؟ أو لم
يذكرك أيضاً بهذي العهود ؟ حين كنت
تصبح وتُمسي وأنت تنهل منه ؟ أو ما تذكر ؟
أيامَ كنت تنام في وكنّتك ، يتنخل إليك من

أثناء الغصون شعاعٌ من نور القمر ، يجمّلُ
أحلامك ويُسعيد كراك ؟ حتى إذا ما طلع
الصباحُ وتفتحتُ عيناك على قبلة الشمس ،
صفقتَ لها بجناحيك وأنت طروب ، وطرتَ
تمرح في قلب شعاعها الذهبيّ عبْرَ الربى
والمروج ، مجتازاً كلّ وادٍ ، هابطاً كلّ منتجع ،
شادياً على كل أيكٍ ، لأثماً كل زهرةٍ ، آكلًا
كلّ فاكهةٍ ، شارباً من كل عين ماء ؟

والآن ! أو لم يذكرك النورُ والشدو بهذا
كلّهُ ؟ نعم ، وما كان أغناك عن أن تتذكر !
ولكنها زهورك ! زهورك الحبيبةُ أغرتك ، كما
دأبت من قديمٍ على أن تغريك . وامثلت
بدافع شوقٍ قديمٍ لم يزل على رغم العفاء يعاود
قلبك ، مثلها يعاود اللحن الضائع صداه .

آه لو علمت زهورك هذى ! لو علمت أن

كل أغنيةٍ شذوتَ بها قد اقتطعتُ فلذةً من
كبدك ، وأن كل قبسٍ من ضياءِ رأيتَه قد
راح يكويه كى النار ؟

نعم ، لو علمتُ أن أغانيك تلك التى طربتُ
لها ، ما حملتُ فى نغمها المبحوح إليك إلا
أحاديثَ السنين الخالية ، ولا جاءك النور فى
خيوطه إلا برؤى أعوامٍ مضت ! وأنها إذ
أغرتك بالشدو سامحها الله ، وإلى النور دفعتُ
بك ، إنما نفَضْتُ من الرمس ذكرياتك التى قد
كان طواها ، وتركتها تحزُّ فى قلبك حزَّ الجمر !

آه ، يا ليتها لم تفعل إذن ! يا ليتها لم تنبش
فؤادك ! إذن لو فَرَّتْ عليك عذابك الجديد ،
وتركتك كما كنت هاجعاً فى سلام .

والآن ، لقد كان ما كان ، وها أنت ذا
تعود إلى الظلام كما كنت ، حيث تقبع فيه

ما على شيءٍ تلوى . فخذني بالله ماذا تنتوى
أن تفعل لتصرم حبل الوقت ، وبأى جلدٍ
ستقوى على احتمال الظلام من جديد ، بعد أن
لحتَ النور الذي عاد يفتح قلبك ؟

لا شيءَ واحسرتاه ! لا شيء سوى أن تتجلد !
اجلسُ أيها البلبِلِ إذن قابلاً في كفك ، وقد
عمدتَ رأسك المشقلَ يديك ، ثم اصبره
على مضضٍ وانتظر . انتظر اللحظة التي تضيء فيها
شموعُ آخرٍ موكبٍ لك ، حين يدعوك القضاءُ
فتزفُ إلى قبرك ، وشيِّعَ الضياءُ عندئذٍ لآخر
مرة ، ثم ودَّعه وأغمضه في التراب .

واجمعْ إذ ذاك أنت وأحزانك ، وغُطَّاءاً
معاً في النوم إلى الأبد . وعُدْ للظلام والصمت
الذين قديماً أوجداك .

[نم]

شرح

[لا تحسب في العدال أسطر التي بها أرقام القطع]

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
٥	١	الفريد	المفرد
٥	١٠	براعم	الزهر قبل التفتح
٥	١٠	تنضو	تنزع
٧	٤	دياجيرك	ظلماتك
٧	١٢	المخضلتين	المبلتين
٩	٣	اترعتهم	ملاهم
١٠	٨	وجيب	خفق
١٠	١٥	خلص	تفرغ
١١	١	بجامرها	أمسكتها الجمر
١١	٣	السرمد	الدائم
١١	٥	مخامر	مُلابس
١٣	١٢	قبرة	طائر
١٤	٩	ندامى	جمع نديم
١٥	١٣	تنزى	تضطرب
١٦	٥	تضرج	احمر
١٦	٧	جمان	لؤلؤ

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
١٦	١٣	الاقاحى	جمع أقحوان وهو نوع من الزهر
١٧	٤	جوى	حرقه الحب
١٧	١١	همصرون	يصفقون
١٧	١٥	رفوق	جمع رق
١٨	١	قيان	مفنيات
١٨	٥	المندل	خشب للبخور
١٨	٣	البرحاء	شدة الوجد
١٩	١٢	واجفا	مضطربا
٢٠	١٢	مراسفك	شفاهك
٢١	١٥	الوكنة	عش الطائر
٢٣	٢	اللجين	الفضة
٢٣	١٢	تأرج	تنشر عطرها
٢٤	١	انحسر	انزاح
٢٤	٢	أرغن	نوع من المزامير
٢٤	٣	المفرق	وسط الرأس
٢٤	٧	انجابت	انكشفت
٢٤	٨	الافنان	الافصان
٢٤	١٢	الشار	ما تساقط
٢٥	٢	السبطة	المنبسطة
٢٥	٧	يرذ	يتساقط قطرات

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
٢٥	١٣	ما تنى	ما تنفك
٢٧	٥	دجا	أظلم
٢٩	٣	يتنخل	ينفذ
٣١	٣	يتنفق	يهلك
٣١	١٣	الموقوف	المهوج
٣٤	٩	الاصيل	وقت العصر
٣٥	١٠	تلم	تمر خطفا
٣٦	٣	ما تقم	ما تنفك
٣٦	١٥	المأجج	الملتهب
٣٨	١٢	تنطف	تقطر
٤٠	٦	غمر	لجة
٤١	١١	مجمى	مخبى
٤٢	٣	أرجوان	احمر
٤٣	٣	تنخب	تسير مسرعة
٤٦	٩	تفتز	تنفرج
٥١	٩	ثناياه	أسنانه
٥١	١٠	المنضد	المصفف
٥١	١١	سلافك	خمرك
٥٣	١٣	تضفى	تنشر
٥٤	١	يفيشها	يبسطها

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
٥٤	١٠	عفى عليه	ابلاه
٥٧	١٢	الدرارى	السكر والكب
٥٨	٢	تجتث	تقطع
٦٠	٤	تخفف	تضع
٦٥	٤	الخفر	الحيام
٦٦	٩	الحب	الفقايق
٦٩	١٣	منتجم	مكان
٧١	١٠	أفانين	أشكال
٧٥	٧	الفلق	الصبيح
٨٧	٢	عريش	[تكسية]
٨٨	١١	بنت الغن	الخمر
٩٨	١	خمشانك	[خرايشك]
٩٩	٢	مختلج	متذبذب
١٠٣	٧	عرف	عطر
١٠٤	١٣	الشرى	مدير الليل
١٠٥	٣	يتخالج	يعترى
١٠٦	٨	لداتها	رفيقاتها
١٠٧	٦	هامة	رأس
١١١	٧	البين	البعد
١١١	١٥	يهيب بك	يدعوك

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
١١٢	١٩	المسجاة	الممددة
١١٢	١٥	مسيرك	مسيرك
١١٣	٣	ظعنوا	بعدوا
١١٥	٢	أهدرتها	خسفتها
١١٥	١٥	قدت	قطعت
١١٦	١٢	أجرة	شجر ملتف
١١٧	٣	الدغل	شجر ملتف
١١٧	١٤	أشلاؤه	أعضاؤه المتناثرة
١١٨	٥	حبيكت	نسجت
١٢٥	١٦	دلفت	دخلت
١٢٧	١١	أصيصا	وعاء لآيات الزهر
١٣٠	٦	مرجل	قدّر
١٣٢	١٠	تزور	نصد
١٣٣	١٥	حسول	متقلب
١٣٥	١	الماقي	مسائل الدموع
١٣٧	١	الفلاة	الصحراء
١٣٧	٢	الحقب	الدهور
١٤٢	١١	غاض	تقاص
١٤٧	١١	مجدودا	محفوظا
١٤٩	٨	الذمام	بقية الروح

الصفحة	السطر	الكلمة	معناها
١٥٨	١	الاجداث	القبور
١٥٨	١٠	ربت	زادت
١٥٨	١٢	مخايل	دلائل
١٦١	١	ربقة	قيد
١٦١	٨	نزوات	نزعات الشر
١٦٢	٩	مسوح	ملايس الرهبان
١٦٩	٣	إرذاذ	تقطر
١٧٢	١٢	هملا	مهملة
١٧٧	١٣	تبسق	تطول
١٨٦	١٠	سجوف	أستار
١٩٣	٦	أزجى	أرسل
١٩٤	٩	غرا	حسانا
٢٠٥	١٣	العفا	الفناء

بيان

للمشعر المنثور طريقة خاصة في القراءة تتلخص فيما يأتي :

[١] وجوب قراءته ترتيباً . [٢] معرفة مفتاح النظم في المقطوعة وذلك بتلمس اتجاه التأدية الموسيقية للجملة من طبيعة تركيبها . [٣] التزام بعض ما يلتزم في قراءة المنظوم ، مثال ذلك قراءة كلمتي « إذا بي » كأنهما كلمة واحدة ، أي بدون فمّل بعد إذا . [٤] الدقة في مراعاة ما تشير به علامات الوقف ، مع ملاحظة عدم الوقوف على الكلمات المشكّلة الآخر حتى ولو تلتها فاصلة « فرجيل » أو نقطة « بوان » ، وإنما توضح هذه العلامة أولئك عندئذ للإشارة إلى وجوب الفمّل في القراءة فقط دون أن يتجاوز الأمر ذلك إلى الوقوف عندها . [٥] نظراً لكثرة أطراد التقديم والتأخير في هذا النوع من الأسلوب وفقاً لما قد تقتضيه رغبة إشاعة النظم فيه ، غدا لا يتيسر فهم الجملة حتى تقرأ بتمامها وباعتبارها وحدة لا تتجزأ ، وذلك مع عدم الإخلال بقواعد الوقف أو الامتثال عند التلاوة طبقاً لما تبين .

كتب المؤلف

- | | |
|--|-------------------|
| مقطعات من الشعر المنشور . | البلبل |
| مقطعات من الشعر المنشور . أقرنها
وزارة المعارف لمكتبات مدارسها . | الزنبقة |
| مأساة غرامية . أقرتها وزارة المعارف
لمكتبات مدارسها . | سمير |
| مأساة غرامية . أقرتها وزارة المعارف
لمكتبات مدارسها ، واشترت حق
تمثيلها الفرقة القومية . | وحيد [طبعة ثانية] |
| مقطعات من الشعر المنشور . [نقد] | مناجاة |
| بحث اجتماعي . [نقد] | البطالة |

تطلب من ناشرتها
مكتبة النهضة المصرية
١٥ شارع المدايح بالقاهرة